التنوير الإسلامي

« ٤٢ »

تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة



تأليف

د. محمد عمارة



في التنوير الإسلامي ٤٢

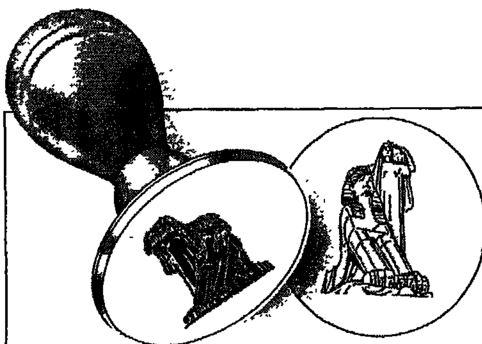
تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة

تأليف

د. محمد عمارة



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٢٨



اسم الكتاب	تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة .
اسم المؤلف	د. محمد عمارة.
اشراف عام	داليا محمد ابراهيم
تاريخ النشر	نوفمبر ١٩٩٩
رقم الإيداع	١٥١٧٢ / ١٩٩٩م .
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1138 - 1
الناشر	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ . (١٠ خطوط). فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦ .
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة . ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ . فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة . ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ . فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

تمهيد

تواريخ الأمم ومسارات الحضارات ، ليست سكونا دائما ، ولا خطا صاعدا باستمرار ، أو هابطا أبدا . . وإنما هى دورات متتابعة ، تحكمها السنن والقوانين . . فيها الصعود والهبوط . . التقدم والتراجع . . الإبداع والجمود . . الازدهار والانحطاط . . وعن هذه الحقيقة- التى يؤكدها الاستقراء لتاريخ الأمم والحضارات - حقيقة الدورات المتتابعة فى مسارات الأمم والحضارات - يعبر القرآن الكريم عندما تقول آياته : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٢) .

(١) آل عمران : ١٣٧ - ١٤٢ . (٢) . حمد : ٣٨ .

كذلك يعبر عن هذه السنة والقانون - فى دورات مسارات الأمم والحضارات - حديث رسول الله ، ﷺ : «لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع ، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله ، حتى يولد فى الجور من لايعرف غيره ، ثم يأتى الله ، تبارك وتعالى ، بالعدل ، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله ، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره»(٣) .

* * *

وفى مواجهة مراحل الهبوط والتخلف والتراجع والمأزق الحضارية ، تفاوتت وتتفاوت المواقف الفكرية والفلسفات . .

فهناك من يستسلم لواقع الهبوط والتراجع والجور ، فيزعم أنه قدر إلهى ، أو حتمية تاريخية ، أو جبلّة طبيعية ، أو صفات لصيقة وخصوصية عرقية أو مكانية ، ليس هناك سبيل إلى الفكاك من نتائجها وثمراتها . . وبذلك يتجاوز نطاق الاستسلام لواقع المأزق إلى حيث يكرسه ويؤبده ، باعثا اليأس والقنوط من الأمل فى أى تغيير . .

وهناك من يرى فى الواقع الهابط والمأزق الحضارى ثمرة للسُّنن والقوانين التى أفضت إليه ، فيسعى إلى الوعى بهذه السنن وتوجيه هذه القوانين لتغيير هذا الواقع والخروج بالأمة من المأزق الحضارى الذى تردت فيه . .

ولقد تكرر هذا «المشهد الفكرى» ثلاث مرات فى واقعنا الفكرى ومسيرتنا الحضارية خلال القرن العشرين . .

(٣) رواه الإمام أحمد .

● فبعد إلغاء الخلافة العثمانية [١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤م] تعددت وتناقضت الاجتهادات الفكرية والسياسية فى وطن العروبة وعالم الإسلام :

فنشأت أحزاب وتبلورت مدارس فكرية ترى فى «الوطنية الإقليمية» و «الدولة القطرية» نهاية المقاصد، وغاية المراد من رب العباد.. وتأصيلا لهذه التوجهات وخدمة لها، كانت الكتابات التى انهالت على فكرة الخلافة ومبدأ الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية بالنقد والنقض والتشويه.. فصورتها استبدادا خالصا، وطغيانا كاملا، وكهانة دينية، على النحو الذى صوره الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م] فى كتابه [الإسلام وأصول الحكم]، عندما رأى الإسلام نصرانية يدع مالقيصر لقيصر وما لله لله، فهو دين لا دولة، ورسالة لا حكم، وما كان رسوله، ﷺ، إلا كالخالين من الرسل، مجرد مُبَلِّغ، لم يُقم حكومة، ولم يؤسس دولة ولا ملكا، ولم يسس مجتمعا، ولم يُقم وحدة سياسية.. كما رأى الخلافة- دائما وأبدا - كهانة دينية وقهرا سياسيا[٤]..

ومن مثل كتابات سلامة موسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ ١٨٨٨-١٩٥٨م] التى دعت إلى الخروج من الشرق، والالتحاق بأوربا، لأن التفرنج - فى كل شىء - من القبعة إلى الثقافة إلى

(٤) على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ٦٤ - ٨٠، ٢ - ٨، ٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م. وانظر - كذلك - كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م.

اللغة إلى نظم الحكم والفلسفات الاجتماعية - هو طريق التقدم والنهوض . . فالعامية- لغة الهكسوس - أفضل من لغة القرآن والتقاليد العربية ، والرابطة الشرقية سخافة . . أما الرابطة الدينية فإنها وقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين(٥) !

ولقد عملت هذه الكتابات- بصرف النظر عن نوايا أصحابها- على تكريس الهزيمة ، وتطبيع العقل العربى والمسلم مع واقعها وثمراتها . . ومهدت السبيل لمحاولات تبنى النموذج الحضارى الغربى- التفرنج ، باللغة الصريحة لسلامة موسى - وذلك بحجة انتفاء الخصوصية الحضارية ، لأن العقل الشرقى - فى رأيهم - كان ولا يزال يونانيا . . أساسه ومكوناته هى :

١ - حضارة اليونان ، وما فيها من أدب وفلسفة وفن .

٢ - وحضارة الرومان ، وما فيها من سياسة وفقه .

٣ - والمسيحية ، وما فيها من دعوة للخير وحث على الإحسان .

ولم يغير القرآن ولا الإسلام من الطابع اليونانى للعقل الشرقى ، كما أن الإنجيل لم يغير من الطابع اليونانى للعقل الأوربى . .

ولذلك ، فعلى الشرقيين أن يسلكوا طريق الغربيين . . فطريق التقدم والنهوض «واحدة فذة ليس فيها تعدد ، وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم فى الحكم والإدارة والتشريع(٦) .

* * *

(٥) سلامة موسى [اليوم والغد] ص ٥ - ٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م . وانظر - كذلك - كتابنا [الإسلام بين التنوير والتزوير] ص ٩٧ - ١٥٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م .

(٦) د . طه حسين [مستقبل الثقافة فى مصر] جـ ١ ص ٢٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٥ ، ٣٦ ، ٣٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

لكن . . وفى مواجهة هذه الاجتهادات ، كان هناك الذين لم «**يعترفوا**» بالواقع ، فينتهوا إليه ويكرسوه ، وإنما «**تعاملوا**» مع ذلك الواقع ليغيروه . . فلم يزعزع سقوط الخلافة العثمانية إيمانهم **بوحدة الأمة الإسلامية، ووحدة دار الإسلام، المؤسستين على وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة الحضارة** - وهى الجوامع الخمسة التى وحدت قوميات الشرق الإسلامى وملله ونحله - فظلوا على يقينهم بقدرة الأمة على تجاوز محنة هذا المأزق ، التى فرضتها هيمنة المد الاستعمارى الغربى ، الذى استعان بالعجز العثمانى والتخلف الموروث ، ليحل نموذجه محل نموذجنا ، وليجهض مشاريع التجدد والتجديد لذاتيتنا الحضارية الإسلامية . .

ولقد قدم هذا التيار الإحيائى والتجديدى- فى الفكر والسياسة- اجتهادات عصرية لروابط مقترحة لوحدة الأمة ، ولشكل جديد للخلافة الإسلامية- التى جسدت أو على الأقل رمزت لوحدة الأمة والدار- **لا تتجاهل هذه الاجتهادات التمايزات القطرية والتنوعات القومية، ولكنها لا تقف عندها..**

وكان فى طليعة هذه الاجتهادات ذلك الإبداع الفكرى الذى صاغه أبو القانون المدنى الحديث وفقيه الإسلام الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ - ١٣٩١هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١م] عن [فقه الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح عصبة أمم إسلامية](٧) .

(٧) انظر الترجمة العربية لكتاب السنهورى- وهو فى الأصل رسالة دكتوراه - بالفرنسية - سنة ١٩٢٦م - ترجمة : د . نادية عبد الرزاق السنهورى ، تقديم وتعليق :د . توفيق الشاوى طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م . وانظر كتابنا : [الدكتور عبد الرزاق السنهورى : إسلامية الدولة والمدنية والقانون] ص ١٢١- ١٤٦ طبعة دار الرشاد . القاهرة سنة ١٩٩٩م .

ولقد تبنت هذا الاتجاه الفكرى - الذى تعامل مع الواقع ، دون أن يسلم بذلك الواقع- مع تفاوت فى العمق والسطحية . . ومع مد الآفاق والمقاصد إلى عالم الإسلام أو الوقوف بها عند الدائرة القومية العربية- الدعوات والحركات والأحزاب الإسلامية والقومية العربية التى تبلورت فى بلادنا منذ العقد الثالث للقرن العشرين . .

هكذا تميزت المواقف الفكرية والسياسية- ومن ثم الحضارية- إزاء مأزق سقوط الخلافة ، وعموم بلوى الاستعمار والعلمانية ، عقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى . .

● ولقد تكرر هذا «المشهد الفكرى»- مرة ثانية- فى مواجهة مأزق الهزيمة الحادة التى أصابت المشروع القومى العربى سنة ١٩٦٧م . .

فكتب توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى عن أننا أمة قد احترفت صناعة الحضارة ، لكن لا دربة لها على صناعة الحروب وفنون القتال . . وتحدث الأستاذ محمد حسنين هيكل- مع الأسف والاستغراب- عن القطيعة التى حدثت بين الأمة وبين الحرب والقتال منذ قرون(٨) . . وهى كتابات لابد وأن تفضى- بصرف النظر عن نوايا أصحابها- إلى تصوير الهزيمة أمام الصهيونية والإمبريالية باعتبارها القدر الذى ليس منه فكاك ! . .

---

(٨) محمد حسنين هيكل [الانفجار : قصة حرب يونيو سنة ١٩٦٧] ص ٨٠٣ - ٨٠٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م - والنص فى : د . محمد جابر الأنصارى [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية] ص ٥٠ طبعة بيروت سنة ١٩٩٥م .

بل ورأى توفيق الحكيم فى «كامب ديفيد» ، وتصالح مصر وإسرائيل : تحالفا بين المتحضرين ، يخلّص المتحضرين من البداوة العربية المتخلفة! . . فالعدو العاقل خير من الصديق الجاهل- كما كتب أحد القساوسة المصريين فى ذلك التاريخ :-

وفى مواجهة هذه الاجتهادات ، صمدت عناصر وقوى المقاومة - الوطنية والقومية والإسلامية- فى مواجهة مأزق الهزيمة ، فبحثت عن السُّنن والقوانين الحاكمة للانتصار ، فطبقتها فى التعبئة الوطنية والقومية ، وفى الإعداد القتالى . . بل وكان المد الإسلامى- الذى تعاظم فى سبعينيات القرن العشرين- ثمرة من ثمرات وتجليات هذا الصمود . . والأمل والطموح فى تجاوز مأزق الهزيمة . . وذلك إعمالا لسنن الله وقوانينه : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[9] ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[10] .

● أما المرة الثالثة ، التى تكرر فيها هذا «المشهد الفكرى» فكانت عقب حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١م - والتى رافقت انهيار المعسكر الاشتراكى- وزوال التناقض الاجتماعى فى النموذج الحضارى الغربى ، فتوحدت قبضة الحضارة الغربية لأول مرة- فى مواجهة الآخر الحضارى- منذ عصر التنوير الأوربى . . فكان إعلان

(٩) محمد : ٣٨ .
(١٠) النساء : ١٠٤ .

الغرب- وخاصة دوائر الاستراتيجية وصنع القرار- أن الإسلام هو العدو - وأن النموذج الغربى هو «نهاية التاريخ» وأن «صراع الحضارات» هو طريق انفراد المركزية الغربية بالهيمنة على هذا الكوكب الذى نعيش فيه . .

وأمام هذا المتغير البارز فى النظام الغربى - المُعَوْلَم- شاع الحديث عن قضاء وقدَر «العولمة» و «الكوكبة» و «الكوننة» ، والاندماج الحتمى فى «النظام العالمى الجديد» . . فالسيادة الوطنية للدولة القومية . . والتنمية المستقلة . . والهوية الحضارية . . والخصوصية الثقافية . . والحماية الصناعية والتجارية . . هى - فى رأى البعض- من أوهام الماضى ، وجمود السلف ، ومخلفات الرجعية ، التى تجاوزتها وطوت صفحتها هذه المتغيرات . . وشاع الحديث عن العالم باعتباره «قرية واحدة» ، يحكمها قانون «الاعتماد المتبادل» . . وذلك رغم أن أهل وبيوت هذه «القرية الواحدة» ليسوا سواء . . ففيهم القاتل والمقتول . . ولا يمكن أن يكون هناك اعتماد متبادل بين «المُجتاح» ومن يتعرض للاجتياح . . بين من يغتصب السيادة وبين من يحرم من كل ألوان السيادة ، والحق فى تقرير المصير ، وأن يُحكم بالقانون الذى يريد - . .

وفى مواجهة هذا اللون من الاجتهادات ، صمدت - أو ظلت صامدة- تيارات الأصالة المتجددة - الإسلامية والقومية والوطنية- التى تؤمن بالقَدَر الإلهى ، وليس بالقَدر الأمريكى . . والتى ترى فى هذه المتغيرات مجرد متغيرات ، وتنكر وتستنكر أن تكون هذه

المتغيرات هى نهاية التاريخ . . فالتاريخ تصنعه الأمم والشعوب ، عندما تعى وتمتلك قوانين وسنن صنع هذا التاريخ . . أما نهاية هذا التاريخ فهى قضاء إلهى ، استأثر بعلمه علام الغيوب . . وليست الليبرالية الرأسمالية المتوحشة ، التى تريد اجتياح حضارات الجنوب ، وتأبيد النهب لثروات أمم هذه الحضارات . .

وإذا كان «إقلاعنا الحضارى» هو طوق نجاتنا من مخاطر هذا الاجتياح، فإن لذلك «الإقلاع» سننا وقوانين، ممكنة التحقيق، ولسنا بإزاء عاهات مزمنة، تثمر «جبريات وحتميات» يستحيل تجاوزها، والشفاء من أمراضها..

* * *

وإذا كانت أغلب الكتابات- التى احترف أصحابها «صناعة تزييف الوعى» لتكريس الهزيمة- هى كتابات «**صحفية- إعلامية**» ، لا علاقة لها ولا لأصحابها «**بالدراسات العلمية**» . . فإنه يكفى فى تفنيد «منطقها»- القائم على التسليم بالواقع- قليل من الوعى بالتاريخ ، الذى ينعش ذاكرة الأمة بسُنَّة الدورات فى مسارات الأمم والحضارات عبر التاريخ . . فتاريخ كل الأمم عبارة عن دورات من الانتصارات والهزائم . . والتقدم والتراجع . . واليسر والعسر . . والبحبوحة والضيق . . والانفراجات والمآزق . . لكن الأمم الحية لم تعرف أبدا التسليم بالأمر الواقع ، الذى يفرضه عليها القصور والتقصير أو تحديات الأعداء ، أو هما معا . .

● فالصليبيون قد احتلوا أكثر وأوسع مما احتلت إسرائيل- التى

هى «قفاز» للقبضة الغربية- واستمر هذا الاحتلال الصليبى أربعة أضعاف عمر إسرائيل - قرنين من الزمان- [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م] . . ولم يعترف أحد يومئذ بذلك الأمر الواقع . . فأسلافنا قد حاربوا وتاجروا . . وانتصروا وانهزموا . . وخاصموا وهادنوا . . **لكن عين الأمة وذاكرتها لم يغيبا عن كامل الحق، حتى تعدلت الموازين فتحقق الانتصار.. وكان العلم والفكر والدين والأدب فى خدمة الوعى بكامل الحق، والسعى لامتلاك سنن استرداده، لا فى خدمة التسليم بالأمر الواقع !..**

● والقدس الشريف - وهى رمز الصراع ، ومفتاح الانتصار- احتلها الصليبيون لأكثر من تسعين عاما- أى ثلاثة أضعاف عمر الاحتلال الصهيونى لكاملها- ويومئذ تحول الأقصى إلى كنيسة لاتينية . . بل واصطبل خيل! . . ومع ذلك ،لم يعترف أحد بهذا الأمر الواقع . . بل ظلت القدس على كل لسان ، وفى كل خطاب ، ولدى جميع الشعراء ، حتى عادت- بامتلاك سنن القوة والنصر- متمتعة بعافية التحرير ! . .

لقد ظل «فكر الأمة»- ويرمز إليه «العماد الكاتب»- يخاطب «الدولة»- فى صورة صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ - ٥٨٩هـ ١١٣٧ - ١١٩٣م] فيقول عن بيت المقدس :

وهَيَّجْتَ ، للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه إليك التشوق
هو البيت ، إن تفتحه ، والله فاعل ... فما بعده باب من الشام مغلق !

حتى تحقق الانتصار . .

● والأزهر الشريف . . لقد تحول يوما إلى «اصطبل» لخيل بونابرت

[١٧٧٩ - ١٨٢١ م] . . وسكر فيه جنوده ، وبالوا وتغوّطوا ، ومزقوا المصاحف وعربدوا ! . . ثم غدا ذلك سطرا أسود فى تاريخ غابر . . لم يستسلم لواقعه أحد فى ذلك التاريخ ! :

● والجزائر . . تحوّلت إلى «إيالة فرنسية»- وليس مجرد «**مستعمرة**»- قرنا وثلث القرن ، كان الاسلام فيها مطاردا ، وتعلّم العربية جريمة! . . والشعارات تعلن : «لقد ولّى عهد الهلال وأقبل عهد الصليب» ! . .

وعندما انهزمت نفوس آحاد من أبنائها ، فتجنسوا بالجنسية الفرنسية ، أفتى الإمام عبد الحميد بن باديس [١٣٠٧ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٩ - ١٩٤٠م] بألا يدفن هؤلاء المهزومون نفسيّاً فى مقابر المسلمين! . . وأعاد الجزائر إلى العروبة والإسلام الشهداء والمجاهدون الذين لم يعترفوا بالأمر الواقع ! . .

وهكذا ، ليس فى ديار الإسلام بقعة إلا وقد أصابها التاريخ «بواقع أليم» . . ربما أشد إيلاما من المأزق الذى يعانى منه العرب والمسلمون هذه الأيام . .

● فـ «قاهرة» اليوم - التى تضمد جراح حرب الخليج الثانية . . وتسعى - مع عواصم عربية وإسلامية أخرى - للملمة القوة ، وصف الإمكانات- وإن كان فى بطء وتدرج- هى «القاهرة» التى امتلك الصليبيون يوما مفاتيح أبوابها ، وفرضوا «الجزية» على أهلها . . بل وأكل أهلها لحوم الموتى ، من شدة المجاعات التى توالت عليها![١١] . .

(١١) انظر - للمقريزى - [إغاثة الأمة بكشف الغمة] - أو تاريخ المجاعات فى مصر- طبعة سنة ١٩٤٠ م .

لكن الفارق بين الساعين لتغيير الواقع البائس والظالم وبين المسَلِّمين والمستسلمين له ، والمكرسين - بالاجتهادات الفكرية الخاطئة- لمأزقنا الحضارى الراهن . . هو «الأمل . . والرجاء» ، يتعلق به قوم ، ويفتقر إليه ويفرط فيه آخرون . . وصدق الله العظيم ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(١٢) .

وهذا «الأمل.. والرجاء» ليس «حلما طوباويا»، ولا «مثاليات» عزت على الممارسة والتطبيق، وإنما هو البصيرة فى التعامل مع الواقع، بدلا من مجرد النظرة الظاهرية لصورة الواقع.. فأمتنا التى تعاملت مع الكسروية الفارسية.. والقيصرية البيزنطية.. والحملات الصليبية.. والغارات التترية.. والاستعمار الغربى الحديث والمعاصر.. والاستطيان الصهيونى.. والتى عانت المجاعات والخيانات، هى ذاتها الأمة التى عاشت «العالم الأول» على ظهر هذا الكوكب، لأكثر من عشرة قرون.. بينما عمر الغرب، كعالم أول» لا يتجاوز القرنين من الزمان ! . .

فالقليل من «الوعى بالتاريخ»- تاريخ الصراعات بين الأمم والتدافع بين الحضارات - كفيل بتبديد مقولات الداعين إلى الاعتراف بالأمر الواقع - من كتاب الصحف ونجوم أجهزة الإعلام ! . .

* * *

---

(١٢) النساء : ١٠٤ .

الجَزَع المشروع!

لكن ، من حقنا - بل وواجبنا - أن نجزع إذا ذهبت بعض الكتابات الجادة فقرأ أصحابها واقعنا التاريخى على النحو الذى يكرس واقع التجزئة والتشرذم والهزيمة والتبعية الذى تعيشه أمتنا . . بل ويجعل من مكونات هذا الواقع البائس الأمر الطبيعى المتسق مع «**لوازم طبيعة المكان.. ولوازم طبيعة الإنسان**» للعرب والمسلمين ! . .

من حقنا أن نجزع عندما نقف أمام قسمة من قسمات المشروع الفكرى لباحث نحترمه ، ولا شك فى إخلاصه لوطنه وعروبته وإسلامه ، هو الأخ العزيز الأستاذ الدكتور/ محمد جابر الأنصارى . . إذا قادت اجتهاداته ، فى هذه القسمة من قسمات مشروعه الفكرى- بصرف النظر عن النوايا الحسنة- إلى تكريس وتأبيد عوامل الهزيمة فى واقعنا الحضارى المعاصر . .

لقد اقتحم الدكتور الأنصارى ساحتنا الفكرية فى فروسية واقتدار، بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م.. وأشهد أنى كنت واحدا من الذين سعدوا به سعادة كبرى.. فميلاد المفكر فى الأمة جدير بأن يكون عيدا من أعياد هذه الأمة، يجب أن تحتفى به وتحتفل، كما كانت تصنع القبائل العربية قديما مع نوابغ وفحول الشعراء.. وأشهد أنى لا أزال أتتبع أعمال الدكتور الأنصارى، وأعلق عليه الكثير من الآمال..

لكننى بدأت أقلق من نغمة أراها خطيرة وخاطئة ، بدأت تتحول

إلى قسمة بارزة فى المشروع الفكرى للدكتور الأنصارى بعد كارثة حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١م . .

فلقد وقف الرجل فى كتابه [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية : مدخل الى إعادة فهم الواقع العربى] الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٤م - ثم فى كتابه [التأزم السياسى عند العرب وموقف الإسلام : مكونات الحالة المزمنة] - الذى صدر سنة ١٩٩٥م - . . وقف أمام بعض سمات واقعنا التاريخى فأخطأ فى اجتهاده لتفسير وتحليل هذه السمات ، ثم استنتج استنتاجات ، مثلت وتمثل - فى رأيى - زاداً تلقفه المهزومون نفسيا ليهيلوا التراب على أشواق أمتنا فى النهوض ، وعلى آمالها فى التضامن والتكامل والتوحيد . .

لقد وقف الدكتور الأنصارى أمام المأزق الحضارى الذى يمسك بخناق أمتنا ، فأرجعه إلى **«عاهات مزمنة»** رآها أزلية أبدية ، منذ الجاهلية ، وعبر الإسلام ، وحتى واقعنا المعاصر . . و «العاهات المزمنة» لا سبيل إلى البرء منها ولا الخلاص من آثارها . .

ولقد تحدث عن مشروعه الفكرى - إزاء هذا المأزق الحضارى - باعتباره المهمة المعرفية الكاشفة عن جذور هذه «العاهات المزمنة» فى واقعنا التاريخى - والتى لم يسبق لأحد قبله إنجازها - **فهى «مهمة معرفية خطيرة.. لم ينجزها الوعى العربى كاملة بعد، على ما بذلت من جهود قيمة بهذا الصدد...». مهمة «فتحت ملف المعضلة السياسية الكاملة للعرب طوال تاريخهم، قبل الإسلام وفى الإسلام»**

وذلك لكشف «جذور الأزمة المزمنة.. والتردى المزمن للعرب فى السياسة.. والتأزم السياسى المزمن فى الحياة العربية.. والواقع التاريخى المزمن والمتحكم.. والقصور العربى الأساسى الكامن والمتمثل فى شبكة العلاقات والآليات السلوكية الجمعية.. الموروث والراهن إنها تركيبة ضاغطة وشديدة التأثير ومترسخة فى الواقع، لأنها نشأت من جذور جغرافية واجتماعية متشابكة خاصة بالمنطقة العربية، فهى ذات خصوصية عربية.. خصوصية تكوين مجتمعى عربى مختلف عن التكوينات المجتمعية فى الأمم الأخرى.. خصوصية نابعة من «الطبقات الجيولوجية المشتركة والواحدة.. من العمق المجتمعى التكوينى الذى يفرز، على مر التاريخ، كل هذه الكوارث.. خصوصية المعوقات الناجمة أصلا عن الطبيعة الجغرافية.. فى هذه المنطقة بالذات، والتى حتمت خصوصيتها الطبيعية الجغرافية نشوء ظواهر أساسية مزمنة.. ونشوء التأزم المزمن والمتكرر.. والمختلف عن أية تجربة سياسية أخرى فى العالم . .»(١٣) .

حتى لقد جعل الدكتور الأنصارى عنوان أحد كتبه إعلانا عن اختصاص أمتنا ، دون كل أمم الأرض ، **بالزمانة فى أسباب التراجع الحضارى**- الذى لم يره مجرد تراجع ، وإنما رآه افتقارا وفقرا أصليا وأصيلا فى تكوين المجتمع والاجتماع . . والدولة . . والسياسة . . والتواصل الحضارى- . . فسمى الكتاب [**التأزم السياسى عند العرب.. مكونات الحالة المزمنة**] . .

(١٣) [التأزم السياسى عند العرب وموقف الإسلام : مكونات الحالة المزمنة] ص ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ٥١ ، ٥٦ طبعة بيروت سنة ١٩٩٥م . و [التكوين السياسى عند العرب ومغزى الدولة القطرية : مدخل إلى إعادة فهم الواقع العربى] ص ج ، ٢٠ ، ٣٢- ٣٥ ، ٤٠ .

وهذه «العاهات المزمنة» المتأصلة فى الطبقات الجيولوجية للواقع العربى وللإنسان العربى ، يأتى فى مقدمتها عاهتان :

١ - عاهة مزمنة فى المكان، هى «الصحراء».

٢ - وعاهة مزمنة فى الإنسان، هى «البداوة»..

وعن هاتين العاهتين المزمنتين، نشأت وتنشأ، وتكررت وتتكرر عاهات عربية مزمنة أخرى، من مثل :

١ - القطيعة المزمنة بين العرب وبين الدولة.. والمجتمع المدنى والمدينى.. والحضارة المتصلة..

٢ - والقطيعة المزمنة مع السياسة..

٣ - والقطيعة المزمنة مع القدرة على الدفاع عن النفس، الأمر الذى جعل التبعية للغير عاهة عربية مزمنة..

٤ - بل - وأيضا - القطيعة مع صلب العقيدة الإسلامية..

تلك هى «العاهات المزمنة» التى اكتشفتها «المهمة المعرفية» غير المسبوقة ، فى المشروع الفكرى للدكتور الأنصارى . . والتى سندير معه - حولها - حوارا موضوعيا- من موقع الحب والإعزاز ، والحرص على أن يكون «المؤمن مرآة أخيه»- بلغة أصالتنا . . ولترشيد حياتنا الفكرية «بالنقد الموضوعى»- بلغة المعاصرة- . .

* * *

عاهة الصحراء العربية

لقد وقف الدكتور الأنصارى أمام «الصحراء العربية» فرآها عقبة طبيعية ، حالت -تاريخيا- دون قيام مجتمع عربى ، ومن ثم دولة عربية . . فهى قد قطّعت أوصال الأمة تاريخيا ، فحالت بينها وبين أن تبنى مجتمعا أو دولة ، ومنعت الاتصال الحضارى ، عبر تاريخنا الطويل . . وفى ذلك يقول :

«إن هناك قطيعة مكانية داخلية بعيدة الأثر بين الأقطار والمناطق والأقاليم العربية، لم يُلْتَفَت إليها علميا وقوميا فى الوعى العربى بدرجة كافية، ولم تُدرس آثارها الخطيرة فى طبيعة المجتمع العربى فى نسيجه الموحد، وفى الحضارة العربية الإسلامية فى امتدادها وتواصلها، وفى الكيان السياسى العربى - قديما وحديثا - وفى تأرجحه المستمر بين الوحدة والتجزؤ .

إن هذه القطيعة المكانية تتمثل فى دور الفراغات والفواصل والحواجز الصحراوية الشاسعة الممتدة بين معظم الأقطار العربية فى تقطيع وتجزئة المنطقة العربية عمرانيا وسكانيا، وبالتالى مجتمعيا وسياسيا، فى الماضى، وإلى الحاضر. وإذا دققنا النظر فى خريطة التجزئة السياسية العربية على امتداد الوطن العربى كله فسنجد الصحراء هى عامل التجزئة الأول والأكبر قبل الاستعمار وغيره من عوامل التجزئة. إن الصحراء هى العامل الانفصالى الأقوى فى الحياة

العربية، ولا يوجد بلد عربى غير صحراوى (عدا لبنان).. إن الفراغات الصحراوية قد منعت نشوء نسيج حياتى عضوى.. لمجتمع موحد، ولدولة موحدة ثابتة، متواصلة من القدم إلى اليوم.. إنها معوقات ناجمة أصلا عن الطبيعة الجغرافية..[14] لقد مثلت الصحراء، ومازالت تمثل أخطر التحديات بلا استثناء لاستمرارية الحضارة العربية الإسلامية، وتواصلها السياسى، فضلا عن المدينى والمدنى[15].. وقبل أن يظهر الاستعمار و «يجزأ» الوطن كانت تلك الفواصل والحواجز الصحراوية الشاسعة هى عامل التجزئة الأول والأكبر فى الوطن العربى»[16] .

فالصحراء- برأى الدكتور الأنصارى- هى العاهة المزمنة التى فرضت علينا - قديما وحديثا- قطيعة عمرانية ، وسكانية ، ومجتمعية ، وسياسية ، وفى الدولة ، والحضارة . . وهى- الصحراء- وليس الاستعمار - عامل التجزئة الأول والأكبر فى الوطن العربى . . وهى عاهه مزمنة ، لأنها «الطبيعة الجغرافية» للمكان .

فنحن - بناء على هذا الفهم لواقع الصحراء العربية- أمام خَلْق إلهى - هو الصحراء - ومعوقات ناجمة عن الطبيعة الجغرافية- لا حيلة لنا إزاءها- قد حالت بين العرب- على امتداد تاريخهم-

---

(١٤) [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية] ص ٣٨ ، ٤٠ .

(١٥) [التأزم السياسى عند العرب] ص ٦٥ .

(١٦) [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية] ص ٦٤ .

وبين «نشوء نسيج حياتى عضوى لمجتمع موحد ولدولة «موحدة» بل ومانعة من «الاستمرارية الحضارية العربية الإسلامية» . . فواقعنا الصحراوى يحول بيننا وبين الوحدة ، ويفرض علينا «القطيعة المكانية . . والعمرانية . . والسكانية . . والمجتمعية . . والسياسية . . والحضارية . . والدولية» أيضا . . ودائما وأبدا . .

وإذا كانت الصحراء هى الصحراء . . بل إننا نشكو من زيادة «التَّصَحُّر» ، فكأننا – بهذه القراءة للواقع – أمام «عاهة مزمنة» – تزداد حدة زمانتها – لا سبيل معها لوحدة المجتمع ولا الأمة ولا الدولة ولا الحضارة ، لا اليوم ، ولا فى المستقبل المنظور ، بل وربما بعد المنظور أيضاً! . . إنه قدرنا الطبيعى ، الذى صنعته ولا تزال تصنعه بنا هذه الصحراء- دون كل خلق الله- قبل الاستعمار ، ومع الاستعمار ، وبعد الاستعمار ! . .

فهل هذا «علم . . وفكر»؟ وهل هذا صحيح ؟ . .

ليسمح لنا الدكتور الأنصارى أن نذكّره بأن هذه الصحراء العربية لم تحل دون تبلور الأمة والمجتمع ، وقيام الدولة ، وبناء الحضارة ، عندما ظهر الإسلام- والرجل ممن يقولون بذلك ، وإن كان يقصره على قرنين من الزمان ، يرى أن القطيعة والانقطاع قد أعقبهما – فيقول عن الإنجاز الإسلامى- الذى يسميه «الحركة الإسلامية»- إنها «**قد نجحت فى تجاوز تلك القطيعة ونقضها خلال مائتى سنة**»(١٧)- أى حتى نهاية العصر العباسى الأول ، وقبل سيطرة المماليك على الدولة العباسية . .

(١٧) المرجع السابق . ص ٧٦ ، ٧٧ .

إذن ، فالصحراء لم تمنع تجاوز القطيعة، عندما توفرت أسباب الوحدة التى أنجزها الإسلام . . حدث ذلك ، وكانت الصحراء يومها مفازات مهلكة ، وربعا خاليا لا يُجاز ، ومجهولا تُحكى عنه أساطير الجان وأودية الشياطين- ومع كل ذلك ، توحد إنسانها فى عقيدة وشريعة وأمة وحضارة ودولة ودار ، أزالت القوى العظمى يومئذ - الفرس والروم - وفتحت - فتح تحرير للأرض والضمير - فى ثمانين عاما أوسع مما فتح الرومان - سادة الفتح الأوربى- فى ثمانية قرون ، وحولت خط سير التمدن ، وموطن قيادته ، وطبيعة هويته ، وغيرت مجرى التاريخ . . فلو كانت الصحراء مانعا طبيعيا من وحدة الأمة والمجتمع والدولة والحضارة والنسيج الحياتى لما حدث ذلك ، بصرف النظر عن عمر هذا الاتحاد الذى أنجزه الإسلام . .

كل هذا حدث ، والصحراء على النحو القديم . .

فهل تحول الصحراء اليوم، بعد أن انتقل إنسانها إلى ألوان ودرجات متقدمة من التوطن والاستقرار والتحضر، وبعد أن غادر إنسانها حياة الارتحال وراء الماء والمرعى.. وبعد أن ربطته - كالحضرى سواء بسواء - ثورة وسائل الاتصال بكل العالم، وليس فقط بحواضر العرب والمسلمين.. فأصبح يعيش أحداث الدنيا لحظة بلحظة، بالمذياع، والتلفاز، والناسوخ (الفاكس)، وشبكة المعلومات العالمية (الإنترنت)، والأقمار الصناعية.. هل تحول الصحراء اليوم- وهذه هى الطفرة التى نقلت إنسانها إلى التلاحم بالعالم- دون وحدة المجتمع والأمة والدولة

والحضارة، فتُعْجِزَ إنسانها العصرى عن إنجاز ماسبق وأنجزه أسلافه، فى وضعها القديم، وعقباتها الكأداء، قبل أربعة عشر قرنا؟ ! . .

ثم، ما دلالة أن يأتى الحديث عن «مرض الصحراء وعاهتها وعقبتها ودائها»، المانع من وحدة العرب، كمجتمع وأمة ودولة.. أن يأتى هذا فى ظل الحديث عن تحول العالم- كل العالم- وليس فقط العالم العربى- إلى «قرية صغيرة»؟ ! وعن «العولمة» و«الكوكبة»، التى لا مكان فيها حتى للخصوصيات الثقافية والقومية والحضارية ؟ !

فهل «العولمة والكوكبة والكوننه» لاتحول دون إلحاق والتحاق جميع العرب بالمركز العالمى الواحد- والذى هو غربى!- بينما لاتستطيع هذه «العولمة» إلحاق العرب وتوحيدهم حول مركز عربى واحد؟ !..

وهل صحراؤنا لاتحول دون انخراطنا فى «العالمية»، بينما تحول دون انخراطنا فى العروبة كنسيج اجتماعى واحد، وأمة واحدة، ودولة واحدة، تتمايز فيها وتتعدد الشعوب والقبائل والولايات والأقاليم والأقطار؟ !

وأليس من المفارقات حديث الدكتور الأنصارى عن الصحراء- «كمعوقات طبيعية جغرافية» - عامة فى العالم العربى، تحول دون وحدته- إلا فى لبنان، الذى يخلو من الصحراء- فهل رأى الدكتور الأنصارى وحدة لبنان- حيث لا صحراء- كنسيج حياتى عضوى أفضل مما هى عليه فى غير لبنان؟ ! ..

وامتدادا لهذا «التفسير الجغرافى» للمأزق الحضارى والقومى الذى تعيشه أمتنا ، يذهب الدكتور الأنصارى إلى تفسير وقوف

اللغة العربية والتعريب عند الوطن العربى ، بوجود الهضاب الثلاث - التركية فى الشمال . . والفارسية فى الشرق . . والأثيوبية فى الجنوب- فهذه الهضاب الثلاث - برأيه - هى التى حصرت اللغة العربية فى الوطن العربى ، ومنعتها من تجاوزه ، لأن هذه الهضاب قد استعصت على الجمال!! . . يذهب الدكتور الأنصارى إلى هذا التفسير الجغرافى العجيب ، فيقول : «كانت هناك الارتفاعات المتنعة الثلاثة التى حالت تاريخيا دون انتشار حركة التعريب . . وهى هضبة الأناضول (التركية) وهضبة فارس (الإيرانية) وهضبة الحبشة (الأثيوبية) ، انتصبت هذه الهضاب الممتنعة الثلاث أمام موجات الهجرة العربية فلم تتعرب بشريا ولغويا ، وإن اجتازها الإسلام وتجاوزها . . لقد قاومت التعريب لتمنعها أمام قوافل الجمال العربية . .»[١٨] .

وإذا كانت هذه الهضاب لم تحل دون الإسلام وعبورها - وتغيير اللغة ليس أصعب ولا أمنع من تغيير الدين - فهل بحث الدكتور الأنصارى عن أسباب لتراجع التعريب غير هذه الهضاب؟ . .

إن قبول الفرس للإسلام دون العربية راجع إلى أن دينهم القديم لم يكن مكافئا للإسلام . . بينما كانت لغتهم - ذات التراث العريق - مما يستحق أن يتشبثوا به . . **فضلا عن أن الدين الإسلامى يسمح بتعدد اللغات فى أمته ودولته، ويعتبر اختلاف الألسنة (اللغات) آية من آيات الله ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ**

(١٨) المرجع السابق . ص ٦٢ ، ٦٣ .

وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (١٩) . .

أما عدم تعرب الترك فله أسباب ، منها : العصبية ومنها ضعف سلطان العربية فى الحقبة التى دخل فيها الأتراك الإسلام . . مع ملاحظة أن العربية قد اتخذت لها مكانا ملحوظا- كلغة للقرآن والشريعة والثقافة - وراء هذه الهضاب ، وتركت بصماتها- حروفا ومفردات - فى غيرها من اللغات الإسلامية فى كل عالم الإسلام . .

وغريب أن يرى الدكتور الأنصارى قوافل الجمال مختصة بحمل اللغة العربية! . . فهل ، ياترى ، كان لحمل الإسلام- الذى تجاوز هذه الهضاب - حيوانات - غير الجمال - لم تستعص عليها هذه الهضاب؟ ! . . أم أن الخيل قد امتنعت عن حمل العربية ، واختصت بحمل الإسلام ؟ ! . .

وبعد أن جعل الدكتور الأنصارى هذه الهضاب الثلاث موانع طبيعية حاصرت الوطن العربى ، وحالت دون عبور العربية لها ، عاد فناقض ذلك عندما تحدث عن افتقار الوطن العربى للموانع الطبيعية التى تحول دون اجتياحه من قبل موجات الرعاة «فالصحارى العربية المفتوحة - مشرقا ومغربا - حالت دون تواصل المنطقة واستقرارها حضريا . . كما لم تنعم المنطقة العربية بحدود طبيعية حصينة تثبت وتحمى إقليمها الجغرافى من موجات الهجرة

---

(١٩) الروم : ٢٢ .

والغزو والاجتياح الخارجى المتواصل الذى كان أبرز عامل فى تقطيع ديمومة الدولة فيها[٢٠]» .

فمرة : هناك الموانع الطبيعية التى تحصر العربية فى الوطن العربى . . ومرة : هناك الصحراء المفتوحة شرقا وغربا ، والتى حالت دون وجود الموانع الطبيعية التى تحمى الوطن العربى من غزوات الرعاة ! . .

إن الحديث عن الصحراء ، باعتبارها العاهة المزمنة ، التى مثلت وتمثل «عامل التجزئة الأول والأكبر فى الوطن العربى» ، حديث لا علاقة له بالواقع التاريخى أو الحديث أو المعاصر لهذه الصحراء ، ولهذه التجزئة . . **ففى ظل الخلافة الإسلامية الواحدة تعددت وتمايزت الولايات، وكانت هذه الولايات المتعددة هى التى تجزئ الصحراء الواحدة، ولم تكن هذه الصحراء هى التى حددت حدود تلك الولايات.. ولا يزال ذلك قائما حتى هذه اللحظات.. فالصحراء العربية فى إفريقيا واحدة متصلة، والدول القطرية- مصر والسودان وليبيا وتشاد وتونس والجزائر والمغرب.. الخ - هى التى تجزئ وتقسم هذه الصحراء، وليست الصحراء هى التى تجزئ هذه الأقطار.. وكذلك الحال مع الصحراء العربية الواحدة فى آسيا، تقتسمها وتجزئها السعودية واليمن والعراق وسوريا ودول الخليج.. وليست الصحراء هى التى تجزئ وتقسم هذه الأقطار.. فصحراؤنا- كحواضرنا- مُجَزّأة، وليست هى «عامل التجزئة الأول والأكبر فى الوطن العربى» - كما يقول الدكتور الأنصارى..**

* * *

(٢٠) [التأزم السياسى عند العرب] ص ٣٥ ، ٣٦ .

عاهة البَداوة

أما العاهة الثانية التى رآها الدكتور الأنصارى لصيقة بالإنسان العربى - بعد عاهة الصحراء اللصيقة بالواقع العربى- والتى تحول بين هذا الإنسان وبين وحدة الأمة والدولة والمجتمع وحذق السياسة وبناء الحضارة، فهى «البداوة» . .

ولو وقف الدكتور الأنصارى بعاهة البداوة عند سكان الصحراء العربية، لهان الأمر . . لأن البدو- سكان الصحراء- فى بلاد مثل مصر وتونس والمغرب والعراق وسوريا واليمن وساحل الخليج - وفيها أغلبية سكان الوطن العربى - نسبتهم إلى مجموع السكان أقل من ١ ٪ . . ونسبتهم فى ليبيا والجزائر من ١ ٪ إلى ٥ ٪ . . وفى السعودية والسودان من ٥٪ إلى ١٥٪ . . والصومال هو البلد الوحيد الذى تزيد فيه نسبة البدو عن ١٥ ٪ [٢١] . .

لكن الدكتور الأنصارى لايقف بعاهة البداوة عند هذه النسبة الضئيلة من سكان الصحراء . . وإنما يذهب ليعمم عاهة البداوة حتى على سكان الحواضر العربية، لأن هذه الحواضر -بنظره- واقعة تحت تأثير بداوة الصحراء، تسودها البداوة المقنعة . . يذهب إلى ذلك فيقول : **«إن الصحراء فى المنطقة العربية-، ليست حكرا على البداوة والبادية، فهى تمثل مجمل طبيعة الوطن العربى ومناخه، حاضرة وبادية، وحتى الوديان والأنهار والمدن الكبرى فيه يعتبرها الجغرافيون ظواهر ومعالم صحراوية، نظرا إلى احتواء**

(٢١) فيليب فارج، ورفيق البستانى [أطلس معلومات العالم العربى] ص ٧٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

الصحراء إياها من جميع الجهات طبيعيا ومناخيا.. فإذا كانت المجتمعات البدوية تعيش بداوة خالصة، فإن المجتمعات الحضرية انطوت على تركيبة مزدوجة ذات توتر خفى أو ظاهر بين القيم الحضرية والقيم البدوية، باعتبار أن المادة البشرية الحضرية قدمت - أصلا - من البادية . .»(٢٢) .

وبعد أن عمم الدكتور الأنصارى «عاهة البداوة» على كل العرب - حتى الحضريين منهم - وهم عامة العرب وجمهورهم - استند إلى قراءة مجتزأة وخاطئة لبعض نصوص ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م] التى تحدث فيها عن «**العرب**» ، فأخطأ فى فهم مراد ابن خلدون بـ «العرب» . . كما وقف أمام مصطلح «**الحضارة**» فى فكر ابن خلدون ، فأخطأ فى فهم مراده بهذا المصطلح ، ثم خلص - بالقراءة الخاطئة- إلى أن البداوة العربية- التى عممها على كل العرب - قد حالت بين العرب وبين فن السياسة وبناء الملك والدولة ، ومن ثم وحدة المجتمع والأمة عبر التاريخ ! . .

صنع الدكتور الأنصارى ذلك عندما قال : **«ويشارك ابن خلدون بدوره فى التعبير عن إشكالية السياسة المزمنة فى حياة العرب بمقولته الشهيرة: «فبعُدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك»**(٢٣) .

وهنا نسأل : من هم «العرب» الذين حكم ابن خلدون بأن «طباعهم قد بَعُدَت عن سياسة الملك» ؟ . . هل هم العرب كأمة؟ . . أم العرب الأعراب الموغلون فى البداوة والتوحش ، قبل

(٢٢) [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية] ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٢٣) المرجع السابق . ص ٢١ .

أن يتدينوا بالإسلام ، فتتهذب طباعهم ، ويساعدهم الإسلام على حذق إقامة الملك والدولة وسياسة العمران ؟ . .

لقد أغفل الدكتور الأنصارى نصوص ابن خلدون، بل وحتى عناوين الفصول فى [المقدمة]، والتى ميز فيها ابن خلدون بين أحوال وأطوار وطبائع العرب إزاء الملك والسياسة.. فكان هذا الحكم العام القاسى والغريب!.

لقد عقد ابن خلدون - فى مقدمته - فصلا جعل عنوانه :

[فصل فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك] . .

لكنه- قبل هذا الفصل مباشرة - عقد فصلا آخر جعل عنوانه : [فصل فى أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة] . .

ولو أن قارئا وقف - فقط- عند عنوانى هذين الفصلين لأدرك أن هناك عربا يحكم عليهم ابن خلدون بأنهم أبعد الأمم عن سياسة الملك . . وهناك عرب يحسنون الملك والسياسة ، لكن إذا كان لهم حظ من الدين .

وعندما يقرأ القارئ ما تحت عناوين الفصول ، سيجد فكر ابن خلدون شديد الوضوح فى التمييز بين العرب فى طور التوحش والإيغال فى البداوة ، قبل التدين بالإسلام ، أو عند الانسلاخ عن جوهره . . وبينهم عندما جعلهم الإسلام سادة الفتوحات وأساتذة الدول والسياسات . .

فعرب البداوة المتوحشة - عند ابن خلدون - هم الذين اختصوا «بالإبل، وهى أصعب الحيوان خصالا ومخاضا.. فاضطروا إلى الإبعاد فى النجعة.. فأوغلوا فى القفار.. فكانوا لذلك أشد الناس توحشا، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه، والمفترس

من الحيوان العجم.. فهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا وجِبِلّة، وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج على ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة. وهذه طبيعة منافية للعمران ومناقضة له، فغاية الأحوال العادية عندهم الرحلة والتغلب، وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له، فالحجر - مثلا - إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافى للقِدْر، فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويُعدُّونه لذلك، والخشب أيضا، إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السُّقُف عليه لذلك، فصارت طَبيعة وجودهم منافية للبناء، الذى هو أصل العمران.. فهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالا فى القفر، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها، لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم، فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك، وللتوحش.. فهم متنافسون فى الرياسة، وقلّ أن يُسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا فى الأقل، وعلى كُره ومن أجل الحياء، فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدى على الرعية فى الجبايه والأحكام فيفسد العمران..»

تلك هى صورة العرب - عند ابن خلدون - فى طور «البداوة المتوحشة» . . الذين يفرون من الاستقرار والبناء والعمران ، ويهدمون المبانى لتحويل أحجارها إلى أثافى للقدور ، ويهدمون السقف ليتخذوا من أخشابها أوتادا للخيام . . فكيف يجعل باحث فى وزن ومقام الدكتور محمد جابر الأنصارى من هذه الصورة طبيعة العرب بإطلاق ، وجبلتهم كأمة عبر العصور والقرون ؟ ! . . بل ويجعل هذه البداوة المتوحشة ضربة لازب حتى للعرب الذين يسكنون الحواضر ، لأن هذه البداوة- فى رأيه- تظل سارية فيهم وغالبة عليهم وآسرة لطباعهم ؟ ! . .

إن ابن خلدون قد رأى هذا الطور من أطوار «البداوة المتوحشة» عامًّا فى الأجناس والأعراق الموغلة فى البداوة، ولم يره خصيصة للعرب وحدهم من دون الناس، فقال - فى هذا السياق - : «**وفى معناهم- [أى وفى مثل إيغال هؤلاء العرب فى البداوة]- ظعون البربر وزناتة بالمغرب، والأكراد والتركمان والترك بالمشرق** . . إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة، لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معا . .»(٢٤) .

فهذه الأوصاف خاصة بفئة الأعراب الموغلة فى توحش البداوة، والتى لا تعتمد إلا على الإبل وحدها، فتوغل فى القفار، ولا تتخذ من الشياه أو غيرها مادة للعيش . . إنهم أعداء البناء والقرار والاستقرار ومقومات العمران . .

أما الأمة العربية التى جاءتها رسالة الإسلام، ونبوة محمد، ﷺ، والتى حملت الإسلام إلى العالمين، وفتحت الفتوح، وأقامت الدول والممالك، وبنت الحضارة، وساست العمران . . فلابن خلدون حديث طويل عنها . . لاندرى كيف أغفله الدكتور الأنصارى ؟! . .

يرى ابن خلدون أن الدين هو طريق العرب للبراعة فى الملك والدولة والسياسة والحضارة والعمران . . وأنهم عندما تدينوا بالإسلام حق التدين لم يكن لأحد من الخليقة ما كان لهم من الملك . . فهو شرط براعتهم فى الدولة والسياسة، وبدونه يعودون للعجز عن سياسة الملك . . فيقول :

«فإذا كان الدين.. كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خُلُق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين

(٢٤) [المقدمة] ص ٩٦، ٩٧، ١١٨ - ١٢٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

المذْهِب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس.. يُذْهِب عنهم مذموماتِ الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويُؤلّف كلمتهم لإظهار الحق، فيحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى، لسلامة طباعهم عن عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق» .

ثم يمضى ابن خلدون ، فيتحدث عن أثر التدين بالإسلام على حذق العرب لبناء الملك وسياسة المجتمعات – بعد أن كان الموغلون منهم فى التوحش أبعد الناس عن سياسة الملك – فيقول :

«واعتبر بذلك فى دولتهم فى المِلّة - (الإسلامية) - لَمّا شيّد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم، فلما نبذوا الدين: نسوا السياسة، فتغلبت عليهم العجم.. ورجعوا كما كانوا لايعرفون الملك ولا سياسته، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم كان لهم مُلْك فى القديم، وما كان فى القديم لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من المُلْك.. [٢٥]» .

فكيف غابت هذه النصوص الخلدونية عن الدكتور الأنصارى . . وهى فى ذات الصفحات التى نقل عنها حديثه عن بُعد العرب عن سياسة الملك – بعد أن جرده من سياقه ، كما رأينا؟ ! . .

* * *

وكما وظف الدكتور الأنصارى نصوص ابن خلدون فى غير موضعها الطبيعى والصحيح . . صنع ذلك مع الدكتور جواد على . . فنقل عنه قوله :

لقد «حالت البرارى بين العرب وبين تكوين المجتمعات الكبيرة والكثيفة ، وعرقلت الاتصالات بين المستوطنات التى بعثرتها . .

---

(٢٥) المصدر السابق . ص ١١٩ – ١٢١ .

وبعثرت الأعراب فى البوادى على شكل قبائل وعشائر . . والمجتمعات الكبيرة الكثيفة هى المجتمعات الخلاقة التى تتعقد فيها الحياة ، وتظهر فيها الحكومات المنظمة للعمل والإنتاج وللتعامل بين الناس[٢٦] . .» .

فجواد على يتحدث عن «**الأعراب**» . . والدكتور الأنصارى يستشهد بالنص فى الحديث عن «**العرب**»! . . وهذا النص- لجواد على - قد جاء فى كتابه [**تاريخ العرب قبل الإسلام**] . . والدكتور الأنصارى يستشهد به فى حديثه عن **العرب بعد الإسلام.. بل وفى عصرنا الحديث، وواقعنا المعاصر**! . . وذلك ليحكم به على انتفاء قيام المجتمع العربى فى الإسلام ! . .

* * *

ومن هاتين العاهتين :

الصحراء : عاهة المكان . .

والبداوة : عاهة الإنسان . .

انطلق الدكتور الأنصارى للحديث عن آثارهما فى القطيعة بين العرب وبين «**الدولة**» . . والقطيعة بين العرب وبين «**السياسة**» . .والقطيعة بين العرب وبين «**القدرة على حماية الذات والديار**» . . فالتبعية للغير هى قَدَرهم الأزلى الأبدى ، وهم دائما «عيال على الغير» ، الاستعمار الغربى اليوم . . والموجات الرعوية المملوكية بالأمس . . وذلك لينتهى إلى أن الممكن ، فى ظل هذه العاهات المزمنة ، هو «**الدولة القطرية**» . . فهى غاية المراد من رب العباد فى ميادين الدولة والمجتمع والتوحيد ! . .

* * *

(٢٦) [التأزم السياسى عند العرب] ص ٤٧ .

وتأسيسا على العاهات المزمنة - الصحراء : عاهة المكان- والبداوة : عاهة الإنسان . . وانطلاقا من الفهم والتوظيف المغلوطين لكلمة ابن خلدون : «فبعُدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك»- والتى قالها عن أهل البداوة المتوحشة ، الذين لم يهذبهم التدين بالإسلام . . والتى انتزعها الدكتور الأنصارى ليصم بها الأمة العربية عبر كل تاريخها . . انطلاقا من ذلك ، وتأسيسا عليه ، حكم الدكتور الأنصارى بأن العرب - طالما أنهم لا يحسنون سياسة الملك - قد عاشوا تاريخهم بلا دولة - بالمعنى المؤسسى للدولة - لقد عرفوا «السلطة» و «الحكومة» ، لكنهم لم يعرفوا «الدولة» الدائمة ذات «الأجهزة والمؤسسات» فكانت «دولتهم هلامية» ، وبعد قرنين من عمر تاريخهم الإسلامى ، قامت القطيعة بينهم وبين الدولة منذ عهد المماليك . . ولقد اعتبر الدكتور الأنصارى هذه القطيعة العربية مع الدولة «خصوصية عربية» ، فهى - الأخرى- جبلة وعاهة مزمنة ، لأنها نتاج لعاهات مزمنة ، هى البداوة والصحراء . . وهو فى ذلك يقول :

«مفصل هام وملمح متفرد لخصوصية التاريخ السياسى العربى.. وإلى حد كبير حاضره.. أن العرب فى ظل دولة الخلافة الإسلامية- الأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية- قد عاشوا فى واقع الأمر حالة «دولتية» هلامية، كانت «دولتهم» خلالها فى نشوء وتحلل متواصلين فى الوقت ذاته.. بحيث جاز القول: إن العرب قد عرفوا

«الدولة» ولم يعرفوها فى الوقت ذاته.. لقد عرفوا أشكالا عدة من السلطة السياسية والنظم الحاكمة، لكن هذه الأشكال من الحكم (الحكومة) لم تجد إطارها المؤسسى البنيوى والشرعى الشامل (الدولة)، فظلت الحكومات تتحرك وتتخبط فى فراغ مؤسسى وبنيوى نتيجة ذلك التشكل والتحلل المستمرين لذلك الإطار «الدولتى» الهلامى والمضطرب.. فكانت هلامية الدولة فى التاريخ والواقع العربى..»(٢٧) .

ومنذ العصر العباسى الثانى - عندما سيطر المماليك على الخلافة - بعد قرنين من تاريخ الإسلام - يرى الدكتور الأنصارى أن القطيعة قد حدثت بين العرب وبين الدولة والسياسة والحضارة جميعًا . . فلقد حدث - كما يقول - **«انقلاب ضد الدولة العربية وضد الحضارة الإسلامية.. فعادت القطيعة السياسية والقطيعة الحضارية معًا إلى مشهد التاريخ العربى، بعد أن نجحت الحركة الإسلامية المتحضرة فى احتوائها وتقليص أثرها لقرنين من الزمان**(٢٨)» .

بل لقد قاد هذا الرأى الدكتور الأنصارى إلى اتهام العرب بأن قطيعتهم مع الدولة قد أدت إلى انحرافهم عن **«صلب العقيدة الإسلامية»**! . . وذلك عندما تبنى رأى المستشرق «جب Gibb [السير هاملتون] وقال : «إن مأساة التاريخ الإسلامى تعود - كما

---

(٢٧) المرجع السابق . ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٨٢ ، - وانظر - كذلك - قوله - فى ص ٨٤- : «ارتبطت هذه الدول المتتابعة «بالسلطات» الحاكمة التى تقيمها ، وتذهب بذهابها ، فتماهت معها ولم يتبلور بالتالى «التجريد المؤسسى لكيان الدولة»- .

(٢٨) [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية] ص ٧٦ .

يرى جب Gibb - إلى « أن العقيدة الإسلامية لم تجد تعبيرها الحقيقى الواضح فى المؤسسات السياسية للدول الإسلامية» ، إذ «لم تنشأ عن هذه العقيدة من المؤسسات الاجتماعية أى نظام سياسى أصيل غير اتجاهات غامضة تمثلها «الخلافة» بنشأتها الحائرة ، **وانحرافها من خلال تاريخها عن صلب العقيدة الإسلامية** إلى السير فى اتجاه التقاليد وأصول الحكم الهلينية والفارسية . .»[٢٩] .

وكما ظلم الدكتور الأنصارى ابن خلدون ، عندما وظف كلمته : «فبعدت طباع العرب عن سياسة الملك» ، فى غير موضعها . . ظلم -كذلك- عمر بن الخطاب ، عندما استدل بقوله : «**لا مُلْك على عربى**» ، على الرفض العربى الطبيعى والجبلى للدولة! . . وأسس على ذلك دعوى القطيعة العربية مع الدولة . .

فهل هذا الذى قاله الدكتور الأنصارى صحيح؟ . . وهل كان تاريخنا مع الدولة تاريخ انقطاع؟ وهل لم يعرف العرب من الدولة إلا الدولة الهلامية ، التى لم تَعْدُ سلطة الحاكم والسلطان ، ولم تتجسد فى مؤسسات دائمة للحكم والإدارة؟؟ . . لننظر . .

إن أكثر ما يثير الاستغراب - فى فكر الدكتور الأنصارى عن «الدولة»- هو «**مفهومه المعيارى للدولة**» ، فالدولة - عنده - والتى افتقدها - برأيه - فى التاريخ والواقع العربيين هى «**الدولة الهيجلية**» - نسبة إلى الفيلسوف الألمانى «هيجل [١٧٧٠-١٨٣١م]- فالعرب لم يقيموا دولة هيجلية ، ولذلك خلا تاريخهم

(٢٩) [التأزم السياسى عند العرب] ص ٢٨ .

من الدولة . وبعبارة الدكتور الأنصارى : فإنه «**من منظور فلسفة الدولة الحديثة يمكننا القول: إن العرب قد عرفوا الدولة بمفهومها لدى مكيافيلى وهوبز، لكنهم لم يقتربوا منها بمفهومها لدى هيجل وجون لوك**[٣٠]» . .

ونحن نسأل: هل يجوز محاكمة شكل ونوع وطبيعة الدولة تاريخيا إلى شكل ونوع وطبيعة الدولة الحديثة ؟

وهل يجوز محاكمة معايير الدولة فى الحضارات غير الأوربية إلى معيار الدولة فى الحضارة الأوربية تحديدا ؟ . .

وهل من الضرورى للدولة، كى تكون دولة، أن تأتى على النمط الهيجلى دون سواه ؟ . .

وهل طابقت الدول، فى التاريخ الأوربى، القديم منه والحديث، نموذج الدولة الهيجلية؟.. أم أن الدكتور الأنصارى ينفى عن خلق الله، فى مختلف الحضارات، وكل مراحل التاريخ، القدرة على سياسة الملك وإقامة الدولة طالما أن دولهم لم تطابق النموذج الهيجلى فى الإطلاق والشمول والثبات والدوام ؟ ! . .

أما عن كلمة عمر بن الخطاب : «**لا مُلك على عربى**» ، فإن معناها أن العرب لا يخضعون لجبابرة الملوك . . فالملك- فى الاصطلاح العربى- هو الجبار ، وملكه ملك جبرية . . ولا يصح أن يفهم من كلمه عمر بُعد العرب عن الدولة ، لأنه قد قال هذه الكلمة وهو الخليفة ، ورأس الدولة ! . .

(٣٠) المرجع السابق . ص ٣٩ .

ثم - وهذا هو الأهم فى حوارنا مع الدكتور الأنصارى حول هذه القضية - إن الدكتور الأنصارى لا ينكر إبداع العرب لحضارة عربية إسلامية . . فهل يمكن قيام حضارة- فى قامة وطول وعرض وعمق ونوع حضارتنا الإسلامية- دون وجود دولة للأمة وللمجتمع الذى أبدع هذه الحضارة؟ ! إن ابن خلدون يقطع فى هذا الأمر فيقول : «فالدولة دون عمران لا تتصور ، والعمران دون الدولة والملك متعذر . .»[31] . .

وهل يتصور العقل أن تتصدى الأمة العربية لأشرس التحديات - التى بلغت حد تهديد الوجود ذاته - والتى دامت قرونا - من الصليبيين . . إلى التتار . . إلى البيزنطيين - دون دولة ذات كيان متجسد فى مؤسسات ؟ !

وإذا جاز لنا أن نضرب صفحا عن هذه التساؤلات المنطقية البدهية.. فإننا نستغرب من الدكتور الأنصارى- وهو الباحث الأكاديمى المرموق، والأستاذ الجامعى المتميز - أن تخلو أبحاثه عن الدولة فى تاريخنا العربى والإسلامى من مصدر واحد من المصادر العديدة التى أرخت لهذه الدولة ومؤسساتها ودواوينها الثابتة والمستمرة عبر تاريخنا الطويل !..

وإذا جاز لنا - فى حدود ما يسمح به المقام - أن نشير - مجرد إشارة - إلى هذا الميدان من ميادين مصادرنا التاريخية التى نجد فيها **«معالم الدولة العربية الإسلامية»** ، فإننا نقول :

---

(٣١) [المقدمة] ص ٢٩٨ .

● لقد بدأ جهاز الدولة الإسلامية الأولى - بالمدينة- فى عهد النبوة- على نحو بسيط ، مناسب للمكان والزمان والحاجات . . ولم يكن لهذه الدولة الإسلامية ميراث يذكر من التراكم التاريخى فى جهاز الدولة ومؤسساتها . . لكنها ، كى تفى بالحاجات والضرورات ، أقامت ما سماه الذين أرخوا لها «بالعمالات» و «التراتيب الإدارية» .

ولقد قام بجمع معالم هذه الدولة- من كتب السيرة والسنة والتاريخ- وأرخ لعمالاتها ووظائفها ، الخزاعى ، أبو الحسن على بن محمد بن موسى الخزاعى [٧١٠- ٧٨٩ هـ ١٠٢٦- ١١٠٣م] فى كتابه [تخريج الدلالات السمعية] . . ثم جاء رفاعة رافع الطهطاوى [١٢١٦- ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٠١ م] فعرض لوظائف وعمالات ومعالم ومؤسسات هذه الدولة الإسلامية الأولى ، انطلاقا من كتاب الخزاعى ، وذلك فى كتاب الطهطاوى [نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز](٣٢) . . ثم جاء عبد الحى الكتانى ، فشرح كتاب الخزاعى ، وبنى عليه فى كتابه [نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية] - وهو مجلدان ، تبلغ صفحاتهما قرابة الألف صفحة (٣٣) . . ثم حظيت معالم وعمالات ووظائف هذه الدولة النبوية بعدد من الدراسات المعاصرة ، من خلال العديد من المؤلفات والأطروحات الجامعية التى قدمت عنها . .

---

(٣٢) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ ٤ ص ٤٨١ - ٧٦٥ . دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

(٣٣) انظر هذا الكتاب - طبعة بيروت - دار الكتاب العربى (د .ت) .

فالدولة الإسلامية الأولى- التى تأسست فى جمعية عمومية وهيئة تأسيسية- فى بيعة العقبة- والتى ولدت على يدى هيئة دستورية منتخبة - هى مؤسسة النقباء الاثنى عشر- الذين عقدوا بيعة تأسيس الدولة نيابة عن الأوس والخزرج- هذه الدولة اكتملت لها العمالات والوظائف التى ناسبت الزمان والمكان . . ولها فى المكتبة العربية مصادر ومراجع تتحدث عن معالمها وعمالاتها . .

● فلما كانت فتوحات خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ، التى خرجت بالدولة الإسلامية- دولة الخلافة ، التى مثلت إبداعا إسلاميا غير مسبوق(٣٤)- من نطاق بساطة شبه الجزيرة العربية ، ورثت هذه الدولة كل وأغنى تراكمات الخبرات الحضارية الإنسانية فى الدولة ومؤسساتها ودواوينها ونظم إداراتها . . ورثت- فى البداية - «تدوين الدواين» عن الفرس والروم . . ثم أقرت واعتمدت مؤسسات الإدارة ونظم الحكم- أى آليات الإدارة والحكم - المتوارثة والمستقرة فى حضارات مصر والشام وفارس وبلاد الرافدين ، بعد أن جعلت مرجعيتها القانونية والفلسفية

(٣٤) يقسم ابن خلدون نظم الحكم ، من حيث فلسفاتها ومرجعياتها ، إلى :

١ - «دولة القهر والتغلب والغرض والشهوة»- أى ملك الاستبداد والجبرية- . .

٢ - و «دولة السياسة العقلية»- أى ذات المرجعية العقلية والدنيوية -اللادينية- . .

٣ - و «دولة الخلافة ، التى تحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها ، عند الشارع ، إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع ، فى حراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين»- [المقدمة] ص ١٥٠ ، ١٥١ .

شريعة الإسلام وفقه المعاملات الإسلامى . . **فكانت الدولة الإسلامية، منذ ذلك التطور، استمرارا لمؤسسات ودواوين ونظم الحكم والإدارة فى هذه الحضارات القديمة والعريقة، ولم تكن انقطاعا ولا قطيعة مع «الدولة» بأى حال من الأحوال** . . بل لقد مثلت الدولة الإسلامية استمرارا- وليس انقطاعا- حتى فى «كوادر» الإدارة ، والقائمين على مؤسسات الدولة من أهل تلك البلاد . . حتى ليقول مستشرق حجة مثل «آدم متز» [١٢٨٦ - ١٣٣٥هـ ١٨٦٩-١٩١٧م] : «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»(٣٥) . .

ولقد سجلت مصادر التاريخ الإسلامى هذا التطور فى جهاز الدولة ومؤسساتها ، عندما تحدثت عن «تدوين الدواوين» . . التى هى مؤسسات الحكم والإدارة ، فى عهد عمر بن الخطاب(٣٦) .

● وعلى امتداد تاريخ الدولة- أو الدول- الإسلامية ، فى العصور الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية ، تراكمت الخبرات الإدارية للدولة الإسلامية- دولة الخلافة . . والدولة السلطانية- وترسخت مؤسساتها ودواوينها . . وعرف جهاز الدولة- إلى جانب «الوزارة» ومنصب «المشير»- الذين ظهرا فى العصر العباسى الأول- دواوين «الخراج» . . و «الجند» . . و «الأحباس - الأوقاف -» . . و «القضاء» مع منصب قاضى

---

(٣٥) [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] جـ ١ص ١٠٥ . ترجمة : د . محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

(٣٦) انظر ، على سبيل المثال ، ابن سعد [كتاب الطبقات الكبير] جـ ٢ ق ١ ص ٢١٢ ، ٢١٦ طبعة دار التحرير . القاهرة .

القضاة- الموازى لوزارة العدل فى عصرنا الراهن- . . و «العمائر» . . و «الحسبة» . . و «الصناعة» . . و «الأسطول»- العمارة - . . و «الإنشاء» - الكُتّاب- . . و «الزكاة» . . و «الجوالى» - الجزية- . . و «المواريث» . . و «الثغور» . . و «الكسوة» . . و «المدارس» . . و«الإقطاع» . . و «الالتزام» . . و «التجار» . . و «دار الضرب» - سك العملة- . . و «الأحكار» . . و «دار العيار» . . و «دار الطراز» . . و «ديوان صندوق النفقات»- الأهراء- . . و «ديوان عجز المال» . . و «ديوان الفواضل»- المتوفر- . . و «ديوان أرباع الكيل»- المكاييل- . . الخ . . الخ . . **وهى مؤسسات للدولة، دائمة وثابتة، لها سجلاتها ونظمها وتقاليدها، والقائمون عليها، ولا تتغير بما يحدث فى قمة الدولة- الخلافة والسلطنة- من تغيرات . .**

● أما دول وسلطنات العسكر المماليك ، التى رآها الدكتور الأنصارى قطيعة مع الدولة والحضارة ، فلقد كانت على العكس من ذلك تماما ، لأن الطبيعة العسكرية لسلاطين المماليك ، وحدّة المخاطر العسكرية التى واجهتها دولهم قد جعلتهم أكثر اهتماما بنظم الدولة ودواوينها ومؤسساتها . . ولو أن الدكتور الأنصارى رجع إلى المصادر التى أرخت للولاة والقضاة . . والوزارة . . والخطط . . لرأى معالم مؤسسات الدولة ودواوينها فى تلك العصور . . بل ولرأى مؤلفات متخصصة فى [قوانين الدواوين][٣٧] . . ولقد كان

(٣٧) انظر - للكندى- [الولاة والقضاة] طبعة بيروت سنة ١٩٠٨م . - وللمقريزى - [الخطط] طبعة دار التحرير . القاهرة . - ولابن الصير فى - [الإشارة إلى من نال الوزارة]- طبعة المعهد الفرنسى . القاهرة سنة ١٩٢٤م .- ولابن مماتى- [قوانين الدواوين] تحقيق : د . عزيز سوريال . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٣م . - ولابن الطقطقى - [الفخرى فى الآداب السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥م .- وللدكتور عبد المنعم ماجد- [نظم دولة سلاطين المماليك] طبعة سنة ١٩٦٧م .

يكفى النظر فى موسوعة القلقشندى [صبح الأعشى فى صناعة الإنشا] - أو حتى فى فهارسها!- ليعلم الدكتور الأنصارى أن «الديوان»- فى ظل تلك الدول- قد أصبح عنوانا «على المكان الذى يعمل فيه أرباب الأقلام.. ثم أطلق على جميع فروع الإدارة.. ولقد كان عماد الدواوين فى زمن المماليك طبقة الكتاب، وذلك كما كان الحال دائما فى مصر منذ عهد الفراعنة، فهؤلاء عماد النظام البيروقراطى.. وكان التنظيم الديوانى فى عهد المماليك أكثر تركيزا، لطبيعة السلاطين العسكرية، فكانت توجد الدواوين بالقلعة، وعرفت باسم «الدواوين السلطانية» . .

أى أن الدولة الإسلامية قد ورثت خبرات ومؤسسات أعرق وأقدم دول الدنيا . . وزاد رسوخ مؤسسات ودواوين هذه الدولة فى العهد المملوكى . . ولم تعرف هذا الانقطاع الذى تحدث عنه الدكتور الأنصارى . .

ولقد كان من هذه الدواوين- فى ظل سلطنات المماليك- : ديوان الأحجاس - الأوقاف - . . وديوان الأحوال . . وديوان الاستدارية . . وديوان الاستيفاء . . وديوان الأسرى . . وديوان الأسطول . . وديوان أسفل الأرض . . وديوان الأسواق . . وديوان الإقطاع . . وديوان الأمراء . . وديوان الأملاك . . وديوان الأمور . . وديوان الإنشاء . . وديوان التحقيق . . وديوان الثغور . . وديوان الجهاد . . و ديوان الجيش . . وديوان الخاتم . . وديوان الخاص . . وديوان الخراج . . وديوان خزائن الكسوة . . وديوان الرسائل . . وديوان الرواتب . . وديوان السلطان . . وديوان صاحب الإقطاع . .

وديوان العـدل . . وديوان القـضـاء . . وديوان الكراع . . وديوان المال . . وديوان المجلس . . وديوان المرتجع . . وديوان المعمور . . وديوان المفـرد . . وديوان المقطع . . وديوان المكاتبـات . . وديوان المواريث الحشرية . . وديوان النظر . . وديوان الهلالى . . وديوان الوزارة[٣٨] . . الخ . . الخ . .

تلك إشـارة إلى الدولة . . وتعـدد وثبـات ورسـوخ وظائفـهـا وعـمالاتها ودواوينها ، على امتـداد تاريخ الإسـلام . . والتى - مع ذلك- تجاهل الدكتور الأنصارى حقيقتها ، ولم يكلف نفسه- وهو الأستاذ الجامعى القدير - أن يعرج على مصدر واحد من عشرات المصادر التى عرضت لها ولدواوينها بالتأريخ ! . .

***

(٣٨) انظر اختصاصات هذه الدواوين ، وتاريخ نشأتها فى : القلقشندى [صبح الأعشى فى صناعة الإنشا] طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة . وانظر : محمد على البقلى [التعريف بمصطلحات صبح الأعشى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م .

ويستشهد الدكتور الأنصارى بما لا يشهد له ، عندما يوظف كلمة ابن خلدون : «فبعُدت طباع العرب لذلك عن سياسة المُلك»- وهى التى قالها ابن خلدون فى عرب البداوة المتوحشة- . . عندما يوظفها فى دعوى قيام القطيعة بين الأمة العربية وبين السياسة بإطلاق . . فيتهم العرب بتدنى إنتاجهم فى السياسة كعلم وفن ، ويتهم علماء الإسلام- من حجة الإسلام الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١م] إلى شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] إلى الأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] بالقطيعة مع السياسة وعالمها . . فيقول :

«إن الحضارة الإسلامية غنية بعطائها الروحى والعلمى والإنسانى، فيما عدا عطاء السياسة.. والشأن السياسى والإنجاز السياسى، الذى يبدو أضعف جوانبها على الإطلاق.. وإن ظاهرة القطيعة بين الأمة ومفكريها من ناحية، وبين السياسة وعالمها من ناحية أخرى، لاتقتصر على محمد عبده- الذى لم يفعل - [عندما استعاذ بالله من السياسة]- أكثر من تأكيده استمرارية الماضى فى الحاضر- وإنما تمتد عمقا فى جذور التاريخ العربى الإسلامى. فقبل ذلك بقرون عدة كان حجة الإسلام الإمام الغزالى يوصى ولده المريد: «ألا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم، لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة».. وبعد الغزالى بثلاثة قرون نجد ابن تيمية ينبه ويحذر بالمرارة ذاتها، عبر هذه المفارقة الصارخة - لكن الصادقة-: «إن الله

ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة».. أما محمد عبده فقد وجد فى أوربا إسلاما بلا مسلمين، بعد أن وجد فى الشرق مسلمين بلا إسلام - بحسب تعبيره -..» (٣٩) .

ولو أن الدكتور الأنصارى قد اتهم «**الدولة المستبدة**» - فى تاريخنا القديم والحديث والمعاصر - بتحجيم الإبداع فى السياسة ومعاداة الفكر السياسى - وخاصة السياسة الدستورية ، المنظمة لعلاقات الحكام بالمحكومين - لكانت لتهمته وجاهتها . . أما أن تكون تهمته موجهة «**للحضارة الإسلامية.. وإلى الأمة ومفكريها.. قديما وحديثا**» بضعف العطاء فى السياسة . . بل وبالقطيعة مع السياسة وعالمها . . فلا بد من محاورته حول مدى الموضوعية والصدق فى هذا الاتهام . .

● فليس صحيحا أن عطاء الحضارة الإسلامية فى الفكر السياسى قليل أو ضعيف . . ذلك أن التأليف فى الفكر السياسى قد بدأ فى الحضارة الإسلامية بمباحث الإمامة والخلافة . . ولقد ظلت هذه المباحث لعدة قرون تأتى ضمن التأليف فى «علم الكلام» ، وذلك مجاراة للشيعة الذين جعلوا الإمامة من مباحث أصول الاعتقاد . . فعلى الذين يبحثون عن تراثنا السياسى فى تلك القرون الأولى ألا يغفلوا مباحث الإمامة والخلافة فى تراث علم الكلام . .

●ومنذ أن استقلت مباحث السياسة والأحكام السلطانية - كفن مستقل - بالتأليف - فى عصر الماوردى [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٧٤ -

(٣٩) [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية] ص ١٧ ، ١٨ .

١٠٥٨ م] - أصبحت لدينا - فى التراث السياسى- ثروة ضخمة فى هذا الميدان . .

وإذا كان دمار مكتبات بغداد والشام ، فى ظل الاجتياح التترى ، قد ذهب بكثير من كنوز تراثنا- ومنه التراث السياسى- وإذا كانت مخطوطات التراث العربى- والتى يزيد عددها عن ثلاثة ملايين مخطوطة- لا تزال موزعة فى مكتبات المعمورة ، دون أن يكون لها فهرس واحد يحصرها ، ويعين على التحديد الدقيق لحجم التراث السياسى فيها . . فإن باحثا واحدا- هو الدكتور نصر محمد عارف - قد أحصى - [فى مصادر التراث السياسى الإسلامى] أكثر من ثلثمائة مصدر ، لم يطبع منها سوى سبعة ! . . وهو يعترف بأنه لم يبلغ عشر معشار الاستقراء لمصادر هذا التراث(٤٠) . . لذلك ، فإن الحكم على الحضارة والأمة والمفكرين بالقطيعة مع السياسة وعالمها هو قول إن جاز لكتاب الصحف السيارة ، فهو غير جائز بالنسبة لمفكر مرموق مثل الدكتور الأنصارى . .

● ثم إن استشهاد الدكتور الأنصارى بما استشهد به من عبارات حجة الإسلام الغزالى وشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد عبده ، لا يشهد له . . بل يشهد عليه !

فنصيحة الغزالى لمريده ألا يخالط الأمراء والسلاطين ، لأن رؤيتهم ومجالستهم آفة عظيمة . . هى - هذه النصيحة - «**موقف سياسى**» ، وليست قطيعة مع السياسة ، لأنها دعوة لاستقلال

(٤٠) [فى مصادر التراث السياسى الإسلامى : دراسة فى إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل] طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى . واشنطون . سنة ١٩٩٤م .

العلماء عن الأمراء ، وحرص على ألا تستوعب «الدولة» رموز «الأمة» . . والمقاطعة- فى عصور الجور والاستبداد -موقف سياسى - بل «وثورى» - دفع ثمنه أبو حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩- ٧٦٧م] ومالك [٩٣ - ١٧٩هـ ٧١٢ - ٧٩٥ م] والإمام أحمد [١٦٤- ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م] ومواكب غفيرة العدد من الأئمة والعلماء ، الذين رفضوا أن يكونوا «فقهاء السلاطين» ، وآثروا أن يكونوا قادة الأمة . .

وكذلك الحال مع كلمات ابن تيمية عن العدل الذى يطيل عمر الدولة ، ولو كانت كافرة ، والظلم الذى يودى بالدولة ، حتى ولو كانت مؤمنة . . إنها كلمات فى الحكمة السياسية ، تتحدث عن السنن والقوانين التى تعيش بها النظم والدول أو التى تعجل بنهاياتها . . وليست- كما ظن الدكتور الأنصارى- هروبا من السياسة أو قطيعة معها . . ثم ، هل يعقل أن يكون ابن تيمية ، الذى كتب المطولات فى السياسة- السياسة الشرعية . . والحسبة- والذى مارس الجهاد السياسى العملى ، وليس فقط الفكرى . . هل يعقل أن يقال عنه إنه قد أقام قطيعة مع السياسة وعالمها . .

ونفس الشىء ينطبق على الشيخ محمد عبده . . الذى كوّن - مع أستاذه الأفغانى- أول حزب سياسى فى تاريخ الشرق الحديث- «الحزب الوطنى الحر» . . والذى كان نائبا لرئيس تنظيم «العروة الوثقى»- وهو تنظيم سياسى سرى أممى إسلامى - . .

والذى كان واحدا من أبرز قادة الثورة العرابية [١٢٩٨ هـ ١٨٨١م] - أولى ثورات الشرق فى العصر الحديث . . والذى تحمل السجن والنفى بسبب السياسة . . بل وكتب- وهو يترجم لحياته- عن أن غايات حياته قد اجتمعت فى ثلاثة أهداف :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد . .

والثانى : إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير . .

والثالث : هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدل على الحكومة . . فالحاكم ، وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل(٤١)» . .

وإذا كان ما نسبه الدكتور الأنصارى للأستاذ الإمام من مقولة أنه وجد فى أوربا إسلاما بلا مسلمين ، ووجد فى الشرق مسلمين بلا إسلام . . هى من «الأخطاء الشائعة» التى لم يقلها محمد عبده - بل كان فكره على النقيض من معناها - . . فإن لعنه «للسياسة» وأصولها ومشتقاتها ، إنما كان لعنا للسياسة المكيافيلية . . سياسة المناورات اللا أخلاقية ، التى سادت بمصر عقب احتلال الإنجليز لها . . ويومئذ «طَلَّق» محمد عبده هذا اللون من «السياسة» ، واشتغل بصناعة التجديد الفكرى ، وتربية الصفوة والنخبة ، اعتقادا منه أن ذلك هو الذى سيثمر- ولو بعد

---

(٤١)[الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣١٠، ٣١١ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .

السنين الطوال- تحقيق الهدف السياسى من مقاصد مشروعه الفكرى الثلاثة . . وعن هذا الأمر قال : «**أما أمر الحكومة والمحكوم، فتركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال، فهذا الغرس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن. والله المستعان**[٤٢]» . . فهو لم يطلّق السياسة- بالمعنى الواسع والجوهرى للسياسة- وإنما اشتغل بالغراس والبناء فى «صناعتها الثقيلة» ، غير متعجل لقطف الثمرات . . ومع ذلك ، فلقد عاش تلك الحقبة من حياته مشتبكا مع الخديوى . . ومع الاستبداد . . والجمود . . إلى آخر قوى وميادين السياسة فى ذلك التاريخ . .

فهل ، بعد ذلك ، يجوز أن نتهم الحضارة والأمة والعلماء بهجران السياسة ، والقطيعة معها ومع عالمها ، وضعف الإبداع فيها ، لا لشىء إلا لتوظيف كلمة لابن خلدون فى غير ما قيلت له ؟ ! . .

لا أظن ذلك جائزا بأى حال من الأحوال ! . .

* * *

(٤٢) المصدر السابق . جـ٢ ص ٣١٢ .

قدَر العجز عن حماية الذات.. والتبعية للأغيار

واسترسالا فى منهاج **«تحليل واقعنا التاريخى والحديث والمعاصر بمنهاج العاهات المزمنة»!** . . ذهب الدكتور محمد جابر الأنصارى إلى قمة تكريس الهزيمة ، عندما حكم على العرب - كأمة - وعبر كل تاريخها - بالعجز عن حماية الذات ، وطلب أو قبول الحماية من الأغيار - المماليك الرعاة قديما - والاستعمار الأجنبى فى واقعنا الحديث والمعاصر - فكأن العجز- برأيه - جِبِلَّة فى صنف العرب . . عن بناء الملك وسياسة الدولة ، لأنهم بدو . . وعجز عن حماية الحواضر إذا سكنوا هذه الحواضر . . وفى ذلك يقول :

«إن أخطر نقاط الضعف الأساسية فى الحاضرة، وفى بنية المجتمع الحضرى الأهلى العربى - رغم كونها بنية تنتج الحضارة وتحتضن الدين والعلم، وتحترف الصنائع والإنتاج الاقتصادى، وتمثل الاستقرار والنظام- هى أنها بنية لا تمتلك ولا تولد قوة التماسك والتضامن الاجتماعى الفعال (العصبية بالمفهوم الخلدونى) للدفاع عن نفسها وعن مقوماتها الحضارية وإقامة سلطتها السياسية وتأمين تماسك وتضامن اجتماعى «مدنى» تكون أساسا لتوليد السلطة السياسية والقدرة العسكرية الذاتية. ومازالت ظاهرة هذا «الغياب» لقوة التضامن «المدينى- المدنى» فى المجتمع الأهلى الحضرى العربى تمثل أخطر نقاط الضعف فى الوضع السياسى للمدن العربية ومجتمعاتها الحضرية المدينية، التى لا تستطيع فرض إرادتها السياسة الذاتية، وتبقى محتاجة غالبا إلى «قوة» حماية وسيطرة من خارجها، سواء كانت عصبية

البادية، أو تماسك المجتمع الريفي، أو قوة الحماية الخارجية، التى تمثلت قديما فى السلطة الرعوية الآسيوية التركية، وتمثلت حديثا فى القوة الأوربية الحامية.. فالمجتمع الأهلى المدينى العربى يعانى ما يشبه الإعاقة المزمنة - [كذا] - والعجز التاريخى - [كذا] فى التعبير الذاتى عن إرادته السياسية وعن توليد قوة تضامن سياسية خاصة به فى وجه القوى والعصبيات الأخرى فى المجتمع العربى ذاته، فضلا عن خضوعه لقوى الحماية الأجنبية، أو تبعيته لها، ماضيا وحاضرا . .»[٤٣] .

ولأن القول بعجز المجتمع العربى عن حماية ذاته ، إلى الحد الذى «**يشبه الإعاقة المزمنة، والعجز التاريخى**»- وفق عبارة الدكتور الأنصارى - حتى لقد أصبحت الحماية الأجنبية - من المماليك قديما ومن الاستعمار الأوربى حديثا - هى القاعدة والقانون فى الحياة العربية !! . . لأن هذا القول شديد الغرابة ، وبالغ الشذوذ . . فلقد ذهب الدكتور الأنصارى - هو أيضا - يطلب الحماية من الآخرين ، حتى يؤيدوه فى دعواه ! . .

لقد ذهب ليحتمى بابن خلدون ، فظلمه ظلما عظيما ، وذلك عندما قال :

«لقد شخّص ابن خلدون سرعة تساقط الدول فى الفضاء العربى الإسلامى ، **ومدى عجز المجتمع الأهلى الحضرى العربى، وعجز الحواضر ومناطق العمران العربية عن حكم نفسها بنفسها وتوفير الدفاع الذاتى عن وجودها، بحيث أصبحوا «عيالا على غيرهم فى المدافعة والممانعة.. فقد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال.. حتى صار ذلك خُلُقاً يتنزل منهم منزلة الطبيعة**» .

(٤٣) [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية] ص ٤٩ ، ٨٥ .

وهذا التعبير الخلدونى اللاذع نجده يمتد ليصور واقع التبعية العربية فى عصرنا، حيث مازالت الكيانات العربية المعاصرة «عيالا على غيرها» فى الاستراتيجية والتقانة (التكنولوچيا) والاقتصاد، مما يشير إلى أن للتبعية جذورا فى التاريخ أقدم من ظاهرة الإمبريالية والاستعمار(٤٤)» !! . .

وبهذا التشخيص ، الذى ينسبه الدكتور الأنصارى - أو يستعين عليه- بابن خلدون ، يضعنا أمام «عاهة مزمنة» رابعة ، هى فى رأيه من العقبات الطبيعية التى تحول بين العرب وبين الاستقلال عن الأغيار . . فهم قديما وحديثا- «عيال على غيرهم» و «عجزهم التاريخى يشبه الإعاقة المزمنة» . . فلا لوم - إذن - ولا تثريب على الإمبريالية والاستعمار ، بل ربما استحقا الشكر والثناء لحمايتهم العرب المعاقين دائما وأبدا ، خصوصا مع الافتقار إلى المماليك الرعاة في العصر الحديث ! . .

فهل هذا صحيح؟ . . وهل يستطيع الدكتور الأنصارى الاحتماء- فى هذا الرأى - بابن خلدون ؟ ! . .

إن مشكلة الدكتور الأنصارى مع هذا الذى نسبه إلى ابن خلدون- من عجز العرب المتحضرين عن حماية حواضرهم- كامنة فى عدم إدراكه لمراد ابن خلدون بمصطلح «الحضارة والتحضر»، فما نسميه اليوم «حضارة» هو «العمران» فى مصطلح ابن خلدون..أما «الحضارة» عنده فهى الترف والرفه والاستهلاك الزائد عن الإنتاج، والعزوف عن العمل المنتج.. أى النعومة والرخاوة.. حتى أنه يسمى هذه «الحضارة»: «سن الوقوف لعمر العالم فى العمران والدولة».. فهى غير «العمران»، بل إنها مرحلة تراجع العمران.. ولذلك، فإن العرب - بل وكل أمة- عندما يدخلون طور الترف والرخاوة والرفاهية والنعومة، لابد وأن يصابوا

(٤٤) المرجع السابق . ص ٢٠ ، ٥٠ .

بالعجز عن حماية أوطانهم وحواضرهم ومجتمعاتهم.. هذا هو المفهوم - للحضارة - الذى لم يدركه الدكتور الأنصارى عندما قرأ ابن خلدون !.. ولو أنه تأمل تعريف ابن خلدون للحضارة بأنها: «أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران.. هي سن الوقوف لعمر العالم فى العمران والدولة.. وذلك إنما يجىء من قِبَل الدولة، لأنها تجمع أموال الرعية وتنفقها فى بطانتها ورجالها.. فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخَرْجُها فى أهل الدولة، ثم فيمن تعلّق بهم.. إن الحضارة هى نهاية العمران، وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر، والبعد عن الخير..»[٤٥].

فابن خلدون يتحدث عن عجز العرب «**المترفين**» ، وليس عن عجز العرب «**المتحضرين**»- بمفهومنا المعاصر للحضارة والتحضر- يتحدث عن عجز مجتمعات «**الشر والفساد**» وليس عن عجز المجتمع «**الأهلى الحضرى**»- كما فهم الدكتور الأنصارى- . . ويزيد هذه الحقيقة وضوحا نص ابن خلدون الذى يقول فيه :

«فأهل الحضر - [أى الترف . . والشر والفساد] - قد ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدَّعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ، ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم[٤٦] بينما أهل الخشونة ليسوا كذلك «فإذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع ، وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد»[٤٧] .

---

(٤٥) [المقدمة] ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٩٨ . (٤٦) المصدر السابق . ص ٩٩ .

(٤٧) المصدر الاسبق . ص ١١٥ .

(٤٨) [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة] ص ٥١ - والدكتور الأنصارى يشير إلى كتاب محمد حسنين هيكل [الانفجار : قصة حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م] ص ٨٠٣ - ٨٠٦ طبعة مركز الأهرام للترجمة والنشر . القاهرة سنة ١٩٩٠ .

هذا هو فكر ابن خلدون ، واضح ومستقيم ، ليس فيه اعوجاج . .

* * *

وغير محاولة الاحتماء بابن خلدون . . يذهب الدكتور الأنصارى ليستشهد - على العجز العربى المزمن عن حماية الذات والمدافعة عنها - بالاستاذ محمد حسنين هيكل . . فيقول :

«وربطا لهذا الماضى - [الذى استشهد عليه بابن خلدون] - بالحضار ، فإن الدراسات التى أجريت فى مصر لهزيمة يونيو سنة ١٩٦٧م قد نبهت إلى أن الانقطاع التاريخى الطويل بين المجتمع الأهلى العربى وبين مهام ومسئوليات الحرب كان ضمن الأسباب العميقة لهذه الهزيمة القومية الكبرى ، فحتى منتصف القرن العشرين لم يكن العرب قد تعرفوا بعد على فكرة الحرب [٤٨]» !

فهل هذا صحيح؟ . . وهل هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ م سببها الانقطاع التاريخى الطويل بين العرب وبين الحرب ، التى لم يعودوا فيتعرفوا عليها إلا فى منتصف العشرين ؟ ! . .

● لقد فتح العرب- تحت رايات الإسلام- فى ثمانين عاما ، أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون . .

● وحتى عندما تعسكرت الدولة ، وأصبح المماليك و «الغُزّ» هم القوة العسكرية الضاربة ، فى مواجهة الصليبيين والتتار والبرتغاليين . . كانت «العامة»- كما يقول المقريزى [٧٦٦- ٨٤٥ هـ ١٣٦٥ - ١٤٤١م] تنخرط فى التعبئة العامة ، وتزحف إلى أرض المعارك ، وتقاتل وتغير على الأعداء أكثر وأشد من غارات الأجناد[٤٩] . . وذلك فضلا عن أن هؤلاء «العامة» هم الذين نهضوا بأعباء «اقتصاد الحرب» لعشرات السنين . .

---

(٤٩) انظر كتابنا [معارك العرب ضد الغزاة] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

● ومنذ العقود الأولى للقرن التاسع عشر تكون الجيش المصرى من الفلاحين المصريين ، على عهد محمد على باشا [١١٨٤-١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] وأحرز الانتصارات الكبرى فى ميادين الحروب مع القيصرية الروسية ، وعلى أرض اليونان وفى مياهها . . بل وضد الدولة العثمانية ذاتها . . وذلك فضلا عن حروب السودان والصومال والشام . . الخ . . الخ . .

● وفى القرن التاسع عشر حارب أهل الجزائر - تحت قيادة الأمير عبد القادر الجزائرى [١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ ١٨٠٧ - ١٨٨٣ م] ضد فرنسا ، قرابة العشرين عاما - من سنة ١٨٣٠ وحتى سنة ١٨٤٨م . .

● وليبيا السنوسية . . وسودان المهدية . . والريف المغربى . . حاربوا الاستعمار الأوربى بألوانه المختلفة : - الإيطالى . . والإنجليزى . . والفرنسى . . والإسبانى . . فى القرنين التاسع عشر والعشرين . .

● كذلك حارب أهل الشام الاستعمار الفرنسى ، لإقامة الدولة العربية ، عقب الحرب العالمية الأولى . .

● وذلك فضلا عن الثورات الوطنية التى تفجرت ضد الاستعمار ، من أجل التحرر الوطنى وحماية الذات . . والتى قدمت فيها الجزائر وحدها قرابة المليونين من الشهداء فى ثمانى سنوات ! . .

● وليس صحيحًا أن هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ م كان سببها «الانقطاع التاريخى الطويل بين الأمة وبين الحرب» . . وإلا فهل يعقل معالجة آثار «الانقطاع التاريخى الطويل» فى سنوات قليلة ، على النحو الذى حدث فى أكتوبر سنة ١٩٧٣م ؟ ! . .

إن الجندى الذى حارب فى سنة ١٩٦٧م هو ذات الجندى الذى حارب فى سنة ١٩٧٣م . . وحتى الجنود «المؤهلات»- خريجو

الجامعات - الذين جندوا بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ م ، كانوا هم أبناء الفلاحين- مثل إخوانهم المجندين الذين لم يحملوا «المؤهلات» ، لا فارق بينهم فى الموقف القتالى ، والبسالة فى الحرب ، والممانعة عن الوطن والذات . . وإنما الفارق الوحيد هو قدرة الجندى المتعلم على التعامل مع الأسلحة الحديثة والمتطورة والمعقدة . . فالجميع هم أبناء الفلاحين ، الذين يكونون أكثر من ٨٠ ٪ من تعداد الشعب المصرى . . والفارق بين حرب سنة ١٩٦٧ م وحرب سنة ١٩٧٣ م هو فارق القيادة ، والأخذ بسنن وقوانين الانتصار ، أو التفريط فى هذه السنن والقوانين . . ولا علاقة لأى من ذلك بخرافة «الانقطاع التاريخى الطويل بين المجتمع وبين الحرب» ، وغيرها من خرافات التبرير للهزيمة النفسية ، التى يتعلق بها دعاة «العجز الذاتى المزمن» و «التبعية المزمنة للآخرين» ! . .

فأين هى «الإعاقة المزمنة والعجز التاريخى عن الممانعة عن الذات . . والتبعية والخضوع للأجنبى ، عالة على الأغيار» . . تلك التى جعلها الدكتور الأنصارى القانون والقاعدة والجبلة الطبيعية للعرب عبر التاريخ ؟ ! . .

* * *

وتأسيسا على هذه العاهات المزمنة :

«**عاهة الصحراء**» : العقبة الطبيعية الجغرافية ، المانعة ، تاريخيا ، من تكوين النسيج الاجتماعى العربى ، ومن ثم الدولة والأمة والاستمرار الحضارى . .

و «**عاهة البداوة**» : الجبلة العربية ، التى تجعل العرب- كل العرب – أبعد الناس عن سياسة الملك وبناء الدولة . .

و «**عاهة القطيعة مع الدولة**» : الثابتة والمستمرة ، التى لم يعرفها العرب ، وإنما عرفوا الدولة الهلامية ، الدائمة الانحلال . .

و «**عاهة القطيعة مع السياسة**» : التى أفقرت الحضارة والأمة فى هذا الفن الذى لا غنى عنه لإدارة الدولة وبناء الملك وسياسة العمران . .

و «**عاهة القطيعة مع الحرب**» : التى أعجزت العرب ، تاريخيا ، عن الممانعة والدفاع عن الذات والأوطان ، فكانت التبعية للأجنبى ، وطلب الحماية من الآخرين ، قدرهم المحتوم . .

تأسيسا على هذه «**العاهات المزمنة**» و «**الإعاقات الطبيعية**» و «**العجز التاريخى**» ، يقف الدكتور الأنصارى عند «**الدولة القطرية**» ، باعتبارها أقصى ما يمكن أن يتطلع إليه العرب من آفاق التقدم والتلاحم والتوحيد . . فالدولة القطرية – عنده – «**هى الظاهرة والحقيقة السياسية الكبرى فى حياة العرب.. إنها، بمنظور الواقع الفعلى للتاريخ والمجتمع، ظاهرة «توحيدية» للتجزؤ الذرى**

والمجتمعى، الذى كان قائما فى ظل الإطار الفضفاض للإمبراطورية العثمانية، وفى ظل التأرجح بين حضور السلطة المركزية المنظمة وغيابها فى معظم المجتمعات العربية قبل قيام الدولة القطرية.. فهى تمثل أول محاولة عربية حديثة فى «الوحدة» وفى «الدولة»..إن العرب يعانون - وعيا - هاجس «التجزئة»، بينما هم يعيشون - فعلا - فوق واقع يتوحد (لأنه كان أكثر «تجزئة» من قبل بمعيار الوحدة العضوية لأى مجتمع موحد . .»[٥٠] !! . .

هكذا تحدث الدكتور الأنصارى عن الدولة القطرية فى واقعنا العربى المعاصر . . **ونسى أن هذه الدول القطرية كانت، فى الإمبراطورية العثمانية، ولايات متمايزة، لكنها لم تكن تقطع ولا تجزئ «دار الإسلام» بنظام «الجنسية» الذى أخذته عن الدول القومية الأوربية - والتى تتجاوزه هذه الدول القومية الأوربية، فى ظل وحدتها الحالية.. فدولنا القطرية انتكاسة عن الوضع العثمانى فى هذا الميدان.. وذلك فضلا عن أن الكثير من هذه «الدول» القطرية لا يملك شيئا من شروط مكونات ومقومات «الدولة».. فالبئر النفطية.. والعمالة الفلبينية.. والقاعدة العسكرية الأمريكية، لايمكن أن تكون مقومات لأى دولة من الدول، بأى مقياس من المقاييس !..**

ولذلك . . ولأن هذه «الدولة القطرية» كانت النموذج الوحدوى الذى رآه الدكتور الأنصارى غاية المراد من رب العباد . . «**فهى الظاهرة الوحدوية، والحقيقة السياسية الكبرى فى حياة العرب**» رأ الدكتور الأنصارى يدافع عن عجز هذه الكيانات القطرية ، جاعلا ، هذا العجز ثمرة لعاهة طبيعية مزمنة فى المكان- هى الصحراء - ولعاهه

(٥٠) [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية] ص ١١ .

طبيعية مزمنة فى الإنسان – هى البداوة – . . **حتى لقد جعل من الاستعمار الغربى لوطننا العربى «التحرير» لهذا الوطن من السيطرة الرعوية التركية.. وجعل من جلاء الاستعمار الغربى عن بلادنا «انكشافا للضعف الذاتى المتأصل فى العرب من جديد»** ! . .

وحتى لا نتهم بأننا ننسب للرجل ما لم يقل ، نسوق كلامه كاملا . . فهو يقول :

«ويلاحظ - فى مفارقة عجيبة - أن الحواضر والمدن العربية ومجتمعاتها الأهلية المدينية لم تخرج من تحت السيطرة الرعوية إلا بوجود القوة الأوربية «الاستعمارية»[٥١] فى البلدان العربية، حيث أدى الوجود الحمائى إلى «تحررها» من السيطرة الرعوية التركية.. فتمكنت المدينة العربية، فى تلك الفترة ذات الطابع «الاستعمارى» من إنشاء المدارس والجامعات الحديثة، وتطبيق النظم العصرية، وتكوين الأحزاب السياسية «المدينية» ذات اللون الليبرالى.. وأنجبت العديد من المفكرين المجددين والنهضويين.. ولكن، ما أن رحلت «القوة» الاستعمارية الحامية، واحتاجت المدينة العربية ومجتمعها المدينى إلى «قوة» ذاتية تولد السلطة وتؤمن الدفاع، حتى انكشف الضعف الذاتى المتأصل من جديد فى هذه البنية المدينية العربية[٥٢]..» !

فالاستعمار الأوربى – برأى الدكتور الأنصارى – قد مثل بالنسبة للعرب «حركة التحرير» من السيطرة الرعوية التركية . . ولم يمثل تعويقا لتقدمنا ونهوضنا ، على امتداد أكثر من قرنين من الزمان . . وإنما كان مصدر التقدم والتجديد والنهضة فى بلادنا . .

---

(٥١) ووضع علامات التنصيص حول كلمة «الاستعمارية» من عنده ! . .

(٥٢) [تكوين العرب السياسى ومغزى الدولة القطرية] ص ٥٥ .

وها نحن - بعد رحيل قواته الاستعمارية المحررة والحامية لنا ، نكتشف عجزنا الذاتى المزمن عن حماية ذاتنا وبلادنا من جديد !! . .

فهل هذا معقول ؟ ! . . وهل هذا مقبول ؟ ! . .

❊ ❊ ❊

إن أخشى ما نخشاه هو أن تخدم الاجتهادات الخاطئة - وهى مشروعة.. بل ويؤجر عليها أصحابها - أن تخدم هؤلاء الذين يعملون على تكريس الهزيمة لدى الأمة.. والإجهاز على آمالها فى النهوض والانعتاق من المأزق الحضارى الذى تعيش فيه..

وهناك فارق كبير بين «تفسير الواقع» للخروج من عثراته، وبين تأبيد هذه العثرات، بتصويرها فى صورة العاهات المزمنة والإعاقات الطبيعية التى جعلت العجز تاريخيا ومزمنا وطبيعيا..

وحتى لا نظلم الدكتور محمد جابر الأنصارى، فلا بد من التنبيه على أن هذا النقد الصريح الذى قدمناه فى هذه الصفحات ليس موجها إلى مجمل مشروعه الفكرى.. فللرجل مشروع فكرى متميز، نتفق معه فى العديد من القضايا والأفكار والإبداعات التى قدمها فيه..

لكننى آثرت - وهذا قدرى - أن أتخذ موقفا نقديا مخلصا وصريحا من القسمة التى رأيتها خطرة وضارة فى هذا المشروع الفكرى الكبير، مفضلا الموقف النقدى على موقف المجاملة والتقريظ.. وذلك عملا بمأثوراتنا التراثية: «رحم الله امرءًا أهدى إلىّ عيوبى».. و «المؤمن مرآة أخيه».. وإيمانا منى بأن المفكرين الكبار - والدكتور الأنصارى واحد منهم - إنما يرحبون بالنقد العلمى - لأنه علم بنّاء - وذلك أكثر ما يرحبون بالثناء.. وخاصة إذا شابته شوائب المجاملة والنفاق..

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق

صدر من سلسلة (فى التنوير الإسلامى)

١ - الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .	د . محمد عمارة
٢ - الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
٣ - أبو حيان التوحيدى .	د . محمد عمارة
٤ - دراسة قرآنية فى فقه التجدد الحضارى .	د . سيد دسوقى
٥ - ابن رشد بين الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
٦ - الانتماء الثقافى .	د . محمد عمارة
٧ - تنصير العالم .	د . زينب عبد العزيز
٨ - التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات .	د . محمد عمارة
٩ - صراع القيم بين الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
١٠ - د . يوسف القرضاوى : المدرسة الفكرية . والمشروع الفكرى .	د . محمد عمارة
١١ - تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم .	د . سيد دسوقى
١٢ - عندما دخلت مصر فى دين الله .	د . محمد عمارة
١٣ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية .	د . محمد عمارة
١٤ - المنهاج العقلى .	د . محمد عمارة
١٥ - النموذج الثقافى .	د . محمد عمارة
١٦ - منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق .	د . صلاح الصاوى
١٧ - تجديد الدنيا بتجديد الدين	د . محمد عمارة
١٨ - الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة .	د . محمد عمارة
١٩ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم .	د . محمد عمارة
٢٠ - التقدم والإصلاح بالتنوير الغربى .	د . محمد عمارة
٢١ - فكر حركة الأستنارة . . وتناقضاته .	د . عبد الوهاب المسيرى

٢٢ - حرية التعبير فى الغرب من سلمان رشدى إلى روجية جارودى . — د . شريف عبد العظيم

٢٣ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين . — د . محمد عمارة

٢٤ - الحضارات العالمية تدافع؟ . . أم صراع؟ — د . محمد عمارة

٢٥ - التنمية الاجتماعية بالغرب ؟ . . أم بالإسلام؟ — د . عادل حسين

٢٦ - الحملة الفرنسية فى الميزان . — د . محمد عمارة

٢٧ - الإسلام فى عيون غربية . . دراسات سويسرية — ترجمة ا . ثابت عيد

٢٨ - الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة . . أم تفتيت واختراق . — د . محمد عمارة

٢٩ - ميراث المرأة وقضية المساواة . — د . صلاح الدين سلطان

٣٠ - نفقة المرأة وقضية المساواة . — د . صلاح الدين سلطان

٣١ - الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية — د . محمد خاتمى

٣٢ - مخاطر العولمة على الهوية الثقافية — د . محمد عمارة

٣٣ - الغناء والموسيقى حلال أم حرام ؟؟ — د . محمد عمارة

٣٤ - صورة العرب فى أمريكا . — ترجمة وتعليق ا .ثابت عيد

٣٥ - هل المسلمون أمة واحدة ؟؟ — د . محمد عمارة

٣٦ - السنة والبدعة . — تقديم وتحقيق د .محمد عماره

٣٧ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان . — تقديم وتحقيق د .محمد عماره

٣٨ - قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى . — د . عبد الوهاب المسيرى

٣٩ - مركسة الإسلام . — ا . منصور أبو شافعى

٤٠ - الإسلام كما نؤمن به . . ضوابط وملامح . — د . يوسف القرضاوى

٤١ - صورة الإسلام فى التراث الغربى . — ترجمة ا . ثابت عيد

٤٢ - تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة . — د . محمد عمارة

الفهـــرس

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

إلى القارئ العزيز . .

[illegible]

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث . .

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

د . محمد عمارة	المستشار طارق البشرى
د . حسن الشافعى	د . محمد سليم العوا
أ . فهمى هويدى	د . يوسف القرضاوى
د . سيد دسوقى	د . كمال الدين إمام
د . عبدالوهاب المسيرى	د . شريف عبدالعظيم
د . عادل حسين	د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين . .

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر